# حَارِسُ الزَّيْتُونِ

بسم الله الرحمن الرحيم

# حَارِسُ الزَّيْتُونِ

# NÖBETÇİ ZEYTİN

للكاتب

صالح كولن

Salih GÜLEN

دَارُ المَكْتَبِيّ

الطبعة الأولى
2017 - 1438

# حَارِسُ الزَّيْتُونِ
# NÖBETÇİ ZEYTİN

للكاتب
صالح كولن
Salih GÜLEN

ترجمة: أحلام العلي

مراجعة وتحرير: مركز التعريب والبرمجة
بإشراف الدكتور غيلث المكتبي

قامت دار المكتبي – براعم المكتبي بترجمة هذا الكتاب الصادر
عن دار ALTIN BURC

قمت ترجمة هذا الكتاب
بمساعدة صندوق معرض منحة الشارقة الدولي للكتاب للترجمة

جميع الحقوق محفوظة

دار المكتبي للطباعة والنشر والتوزيع

دمشق - الشارقة - القاهرة
دمشق هاتف: 00963112248433، فاكس: 00963112248432 ص.ب: 31426
الشارقة هاتف: 0097165512262، فاكس: 0097165512264 ص.ب: 3309
Email almaktabi@gmail.com
www.almaktabi.com

# مِقْلاةُ البَيضِ

نزلَ من درجاتِ سلَّم سكنِ الطُّلاب الصَّغيرِ، وهو يتأبَّطُ ذراعَ الأُسْتاذ مؤكِّداً على كلامهِ السَّابقِ. قالَ مديرُ السَّكنِ:

ـ أَرْجوكَ يا أُسْتاذُ، أَسْتَطِيعُ أنْ أستقبلَ في بَيْتِي كلَّ الطُّلاب، كَم طالباً لدينا الآنَ؟

ـ يُوجَدُ تسعة طلَّابٍ يا سيِّدي.

ـ إذاً، أنتظرُ كلَّ الطُّلاب.

لم يجدِ الأُسْتاذُ أمامَ إصرارِ المديرِ الشَّابِّ إلَّا أن يقبلَ الدَّعوةَ.

ـ إذاً هَلْ يناسبُكَ مساءَ يومِ الخميسِ؟

ـ بالتَّأكيدِ، ولكن مَازالَ هُناكَ عدَّة أيَّام لقدوم الخميسِ. ما رأيُك بالقدومِ غداً أو يوم الإثنينِ؟

ـ نَحنُ مشغولونَ كلَّ أيَّام الأُسْبُوع عَدا يَوم الخميسِ.

ـ (أنْ تأتيَ متأخِّراً خيرٌ من أنْ لا تأتيَ أَبَداً). إذاً، أنتظرُكم يومَ الخميسِ إنْ شَاءَ اللهُ.

ـ إنْ شَاءَ اللهُ.

ـ أعودُ وأؤكِّدُ لك أنَّني أنتظرُ جميع الطَّلَبَة، وسأتضايقُ جدّاً إن تخلَّفَ أحدُهم.

ـ حسناً يا سيِّدي.

ـ قالوا: (إذا دُعيتَ إلى بيتِ أحدِهم اذهَبْ ولا تُطِلْ في المُكوثِ، وإن لم تُدْعَ لا تذهَب كي لا تضيِّقَ على المدعوِّين)، اللِّقاءُ يوم الخميسِ.

في الحَقيقَةِ كَانَت مهنةُ المديرِ عارف الأساسيَّةُ بناءَ الأفرانِ الحجريةِ.

نشأَ ضمنَ أسرةٍ فقيرةٍ، وتعلَّمَ مَعَ إخوتِه الثَّمانيةِ كَيفَ يتشارَكونَ طبقَ الحساءِ وقطعةَ الخبزِ.

ومنْ غرفتهِ الضيِّقَةِ في بَيْتِ العائلةِ القرويِّ، قَرَّرَ الهجرةَ من مدينةِ أرزوروم إلى مدينةِ إسطنبول، وفي غرفةٍ في سكنٍ شبابيٍّ أمضَى عارفٌ أيَّاماً صعبةً، يعملُ أحياناً حمَّالاً وأحياناً أُخْرَى يبيعُ الماءَ. وخِلالَ رحلتهِ الصَّعبةِ

يحاول التَّمسُّكَ بأملٍ للحياةِ، وخِلالَ عملهِ كبائعٍ للماءِ في أحدِ المقاهي تصادفَ مَعَ معلِّمِ بناءِ أفرانٍ حجريَّةٍ، وهكذا بَدَأَ رحلتَه مَعَ هَذِهِ المهنةِ. في الوقتِ الَّذِي كَانَ يضعُ حجراً فوق حجرٍ، ولبِنةً فوقَ لبِنةٍ، كَانَ كَأَنَّهُ يبني حياتَه، ومرَّتِ السَّنواتُ في إسطنبول مزاولاً هَذِهِ المهنة.

وفي أَحَدِ الأَيَّامِ قَرَّرَ - بدلاً من بناءِ أفرانٍ للآخرينَ - أنْ يبنيَ فرنَه الخاصَّ. ومُنْذُ ذَلِكَ الوقتِ بَدَأَ يدَّخرُ كلَّ ما حَصَلَ عَلَيْهِ منَ المالِ لبناءِ مشروعهِ الجديدِ.

وإذا أَرادَ اللهُ أنْ يوفِّقَ عبدَهُ يسَّرَ له كلَّ الأسبابِ. فمِن بنَّاءٍ للأفرانِ الحجريَّةِ إلى صاحبِ أربعةِ مصانعَ خبزٍ.

وعِنْدَما تحسَّنَ وضعُه المادِّيُّ بنَى منزلاً من ثلاثةِ طوابقَ، بإطلالةٍ رائعةٍ، وكَأَنَّهُ عوَّضَ بها كلَّ سنين الحاجةِ والفقرِ أَثْناءَ طفولتِه وشبابِه.

في أَحَدِ الأَيّامِ وكَانَ يوم الجمعةِ، وبعدَ خروجِه من صلاةِ الجمعةِ، مرَّ على أحدِ بائِعي البيَّاضاتِ. كَانَتْ هَذِهِ الزِّيارةُ بِدَايَة طريقٍ جديدٍ في حَياتِهِ.

جَاءَ رجلٌ مسنٌّ إلى الدُّكَّانِ، طَلَبَ علبةً من الورقِ

المقوَّى (الكرتون) منَ البائعِ. وأَثْناءَ تجهيزِ البائعِ لطَلَبِه، التفتَ السَّيد عارف للمسنِّ متسائلاً:

ـ خيراً إنْ شَاءَ اللهُ، هَلْ تنتقلُ يا عمُّ؟

ـ لا يا بنيَّ، مِن أَيْنَ خطرَ لكَ هذا؟

ـ ألمْ تطَلبْ علبةَ كرتونٍ قبلَ قليلٍ؟

ـ ليسَ لي، يُوجَدُ طَلَبَة جاؤوا من الخارجِ للدِّراسةِ في الجامعةِ.

في هذا الطَّقسِ الباردِ، وكي لا يُصابوا بالمرضِ فكَّرتُ أنَّني إنْ وضعتُ هَذِهِ العلبَ تحتَ فراشِهم ستقِيهمْ منَ البردِ ولو قليلاً.

ـ من هم هَؤُلاءِ الطَّلَبَة؟ هَلْ همْ أقرباؤكَ؟

ـ لا.

ـ من أبناءِ بلدتكَ إِذاً؟

ـ لا يا بنيَّ، حتَّى لو سألتَني عنْ أسمائِهم لا أعرفُ. إنَّهم شبابٌ مهذَّبونَ ومتديِّنونَ، وكَوني متقاعداً أقدِّمُ لهمُ المساعدةَ بقدر ما أسْتَطِيعُ.

وفي أَثْناءِ حديثهِ مَعَ المسنِّ، مرَّ شريطُ حياتِهِ كفيلمٍ

سريعٍ أمامَ عينهِ. تذكَّرَ طفولتَه ولياليَ الشِّتاءِ الباردةَ الَّتِي قضاها في بَيْتِه القرويِّ، ووحدته القاسية في غرفتهِ المملوءةِ بالعفنِ في إسطنبول، والمعاناة معَ مرضهِ والسُّعال المزْمن من جرَّاء البردِ القارسِ.

ـ أَيْنَ هَؤُلاءِ الطَّلَبَة يا عمُّ؟

ـ يقطنونَ في طابقٍ سفليٍّ من عمارةٍ في منطقةٍ فقيرةٍ.

ذَهَبَ السَّيدُ عارف، واشترى خمسةَ أسرَّةٍ، وأرسلَهم إلى الطَّلَبَة. وكم شعرَ بالسَّعادةِ بعدَ عملِ الخيرِ هذا. ومِن ذَلِكَ الوقتِ أَصْبحَ السَّيدُ عارف يتردَّدُ على منزلِ الطَّلَبَة، ومِن تردُّدهِ المستمرِّ على الطَّلَبَة نشأتْ فكرةُ إنشاءِ سكنٍ للطُّلَّابِ. وباشرَ بتنفيذِ الفكرةِ فوراً. وعملَ ليلاً نهاراً دونَ توقُّفٍ.

عِنْدَما كَانَ يساعدُ في حملِ الأحجارِ لتشييدِ السَّكنِ، تذكَّرَ أيَّامَه السَّابقةَ عِنْدَما كَانَ بناءً. وعِنْدَما يراهُ الطُّلابُ في هَذِهِ الحالةِ يَقُولون:

ـ نرجوكَ لا تتعِبْ نفسَكَ بحملِ الأحجارِ، وأنتَ في هَذِهِ السِّنِّ.

كَانَ يردُّ عَلَيْهِم:

ـ أَرْجوكمْ لا تحرمُوني من هَذِهِ السَّعادةِ.

وعِنْدَما تمَّ الانْتهاءُ من البناءِ، جَاءَ وقتُ اختيارِ اسمٍ للسَّكنِ، فأَرادَ الطُّلابُ إطلاقَ اسمِ السَّيدِ عارف على السَّكنِ، فلم يوافقْ. وأمامَ إصرارِهم قَبِل أنْ يطلقَ على السَّكنِ اسمَ الأفرانِ الحجريَّةِ.

وماذا تنتظرُ من شخصٍ قضى شبابَه كبنَّاءٍ للأفرانِ الحجريَّة، إلا أنْ يختارَ غيرَ هذا الاسمِ للسَّكنِ الشَّبابيِّ؟! وبالمناسبةِ لم ينسَ أنْ يبنيَ فرناً حجريّاً في المطبخِ!.

كَانَ يستعيدُ شبابَه كلَّما رأى أولئكَ الشَّبابَ المهذَّبينَ الطَّيبينَ المتديِّنينَ، هدفهمُ الوحيدُ أنْ يدرسُوا ليصبِحوا أفراداً نافعينَ لبلدِهم. ولأنَّه أنْهَى فقط المرحلةَ الابتدائيةَ، ولمْ يتمكَّنْ منْ إكمالِ دراستهِ، فقدْ كَانَتْ سعادتُه بالغةً بمساعدتِه لهَؤُلاءِ الشَّبابِ.

في رمضانَ ذَلِكَ العام دعاهُم إلى االإفطارِ، كَانَ يوم سبتٍ. ومَازالَ هُناكَ خمسة أيَّامٍ ليومِ الخميسِ. كَانَ متحمِّساً جدّاً، ويفكِّرُ بما سيقدِّمُه لهم. ولكنَّه لم يقَرَّرْ بعدُ.

انشغلَ يومُ الإثنينِ في دفعِ الضَّرائبِ. وخطَّطَ للقيامِ بالتَّسوُّقِ لإحضارِ مستلزماتِ الدَّعوةِ في يومِ الثُّلاثاءِ، ولكنه انشغلَ بتقديمِ شكوى ضدَّ أحدِ السَّيَّاراتِ النَّاقلةِ للخبزِ، ونسيَ الموضوعَ تماماً. أمَّا يوم الأربعاءِ فكَانَ يومه حافلاً بالعملِ لدرجةِ أنَّه تناولَ الإفطارَ مَعَ العمَّالِ في المعملِ.

وبِسَببِ كثرة انشغالِه طيلةَ أيَّام الأُسْبُوعِ، استيقظَ يومَ الخميسِ وهو يشعرُ بالتَّعب الشَّديدِ، ولا يسْتَطِيعُ أنْ يركِّز في أيِّ شيءٍ.

ـ كَانَ هُناكَ شيءٌ ما كنتُ سأفعلُه يوم الخميسِ، لكن ما هو؟

لم يستطعِ التَّذكُّرَ بأيِّ وسيلةٍ، فقالَ محدِّثاً نفسه:

ـ يُوجَدُ ما عليَّ فعله يوم الخميسِ، لكن ما هو؟

فكَّرَ، ولكنَّه لم يستطعِ التَّذكُّر أبَداً.

نظرَ إلى التَّقويمِ الَّذِي على الطَّاولةِ. كتبَ عَلَيْها أنَّه عَلَيْهِ اليوم دفعُ التَّأمينِ.

ـ على كلِّ حالٍ يكونُ المحاسبُ قد دفعَ المبلغَ.

فكَّرَ قائلاً:

ـ على الأغلبِ هو ليسَ بشيءٍ ذي أهميَّةٍ، لذَلِكَ لم أستطعِ التَّذكُّرَ.

ـ يا إلهي! ما هو الشَّيءُ الَّذِي لا أسْتَطِيعُ أنْ أتذكَّرَه؟ هذا يعني أنَّه غيرُ مهمٍّ، مقنعاً نفسَه بذَلِكَ.

وقبلَ حلول الإفطارِ بساعةٍ، وصلَ السَّيد عارف إلى منزله، حَيْثُ كَانَتْ زوجتُه تهيئُ طاولةَ الطَّعامِ. وذَهَبَ في ذَلِكَ الوقتِ ليتابعَ قراءةَ القرآنِ.

بقيَ على الإفطارِ عشرَ دقائقَ، فتوقَّفَ عن قراءةِ القرآنِ، وتوجَّهَ إلى غرفةِ الجلوسِ ليتابعَ برنامجَ الإفطارِ في التِّلفازِ.

كَانَ مرهقاً جدّاً لجوعهِ الشَّديدِ، وعيناهُ ذابلتانِ من التَّعبِ مشاهداً التِّلفازَ، وفي ذَلِكَ الوقتِ قُرعَ جرسُ البابِ، فأطلَّتْ زوجتُه من الشُّرفةِ لرؤيةِ مَنِ القادم، فصاحتْ قائلةً:

ـ عارف، عارف، تعالَ بسرعةٍ، يُوجَدُ صفٌّ طويلٌ من القادمينَ إلى منزلِنا.

ـ ماذا؟ يا إلهي!

وهنا فقطْ تذكَّر دعوةَ الإفطارِ.

ـ ماذا حَصَلَ؟

ـ لقدْ نسيتُ تماماً أنِّي قد دعوتُ اليوم تسعة أشخاصٍ إلى الإفطار.

قالتْ صارخةً.

ـ أيُّ إفطارٍ يا عارف؟

ـ لقد دعوتُ بعضَ الأصدقاء من السَّكنِ، وكَأَنِّي نسيتُ!

ـ لماذا لم تقلْ لي ذَلِكَ؟

ـ نسيتُ.

ـ اذْهَبْ بسرعةٍ، وافتحِ البابَ للضُّيوفِ.

نزلَ السَّيدُ عارف مسرعاً، وهو يهزُّ رأسَه:

ـ يا إلهي! كَيفَ نسيتُ ذَلِكَ؟

وفتحَ الباب محاوِلاً رسمَ ابتسامةٍ على مُحيَّاه:

ـ أهلاً وسهلاً بكم. لقد شرَّفتموني بقدومِكم، تفضَّلوا، من هنا من فضلكم.

ودخلَ الضُّيوفُ مبهورينَ بمنزلِ السَّيدِ عارف، بَيْنَمَا هو مشغولٌ بما سوفَ يقدِّمُه لهمْ.

أجلسَهم في صالونِ الطَّابق الثَّاني. وعِنْدَما رأَى الضُّيوفُ روعةَ المنزلِ حدَّثوا أنفسَهم:

ـ كَمْ سيكونُ الإفطارُ رائعاً! يا تُرى ماذا سنأكلُ اليوم؟

ذَهَبَ السَّيدُ عارف إلى المطبخِ. وسأل زوجَتَه:

ـ كم شخصاً يكفي طعامُنا؟

ـ لقدْ صنعتُ القليلَ من الطَّعام، لأنَّ الأولادَ مدعوُّونَ عندَ أصدقائِهم. بالكادِ يكفي لنا وحدَنا.

ـ أَيْنَ هو هذا الطعامُ؟

وقال منزعجاً:

ـ عزيزتي: هَلْ هذا فقط الموجودُ؟ هذا لا يكفي حتَّى لي.

ـ إنَّه ليسَ ذنبي. وأنتَ تعلمُ هذا، إنَّه شيءٌ لا يصدَّقُ. هَلْ من المعقولِ أنْ ينسَى الإنسانُ دعوتَه لتسعةِ أشخاصٍ؟

ـ لا تطيلي الأمرَ، ذنبٌ واقترفناهُ. يجبُ أنْ نجدَ حلّاً. كَم بقيَ على زمنِ الإفطارِ؟

ـ ثمان دقائقَ.

ـ لا تقولي ذَلِكَ ! هَلْ هذا ما بقيَ؟

ـ لو تتَّصلُ بصديقكَ صاحبِ المطعمِ.

ـ فكرةٌ جيِّدةٌ.

كَانَ يجبُ أنْ يتَّصلَ مُنْذُ البِدَايَة، ولكنَّه لم يفعلْ، وبصعوبةٍ وجدَ هاتفَه النَّقَّالَ واتَّصل بصديقهِ.

ـ ألو، آدم. .أنا عارف، أرجُو أنْ تبعثَ لي طعاماً يكفي لتسعةِ أشخاصٍ سريعاً.

ـ أيُّ طعامٍ في هَذِهِ السَّاعةِ ياصديقي؟

ـ عِنْدِي ضيوفٌ.

ـ لا أسْتَطِيعُ، المطعمُ مليءٌ تماماً. لو كَانَ العددُ ثلاثةً أو خمسة أشخاصٍ كَانَ ممكناً، ولكنْ تسعة أشخاصٍ مستحيلٌ!

حارَ عارف في أمرِه، وعادَ ليسألَ زوجتَه:

ـ كمْ رغيف خبزٍ عندَنا؟

ـ اثنانِ.

وفوراً اتَّصل بالمخبزِ:

ـ ألو، أركَان، ابعثْ لي تسعةَ أرغفةٍ إلى البيتِ حالاً.

ـ خيراً ياسيِّدي؟

ـ خيراً خيراً. هيَّا بسرعةٍ.

ـ حسناً.

استطاعَ السَّيدُ عارف حلَّ مشكلةِ الخبزِ، وبقيت مشكلةُ الطَّعامِ.

ذَهَبَ إلى البرادِ للبحثِ عن شيءٍ يكفي لتسعةِ أشخاصٍ، وفجأةً صرخ قائلاً:

ـ وجَدْتُها!.

وكَانَتْ سعادتُه كبيرةً كمنْ وجدَ ضوءاً في نهايةِ مغارةٍ مظلمةٍ.

ـ عزيزتي، ضَعي المقلاةَ على النَّارِ، سنقلي بيضاً!

شعرتِ الزوجةُ بالخجلِ، وكَانَتْ مُحرجةً من تقديمِ البيضِ المقليِّ فقطْ على الإفطارِ.

وكَانَ عارف مرتبكاً، وهو ينقلُ صحونَ البيضِ المقليِّ إلى المائدةِ، وكَانَتْ زوجتُه تقلي كلَّ أربعِ بيضاتٍ معاً، وعارف ينتقلُ بين المطبخِ والصَّالونِ كالمكُّوك مخاطباً ضيوفَه:

ـ أنا آسفٌ جدّاً أيُّها الأصدقاءُ، من شدَّةِ انشغالي نسيتُ أمرَ الدَّعوةِ، أَرْجوكمْ لا تُؤاخِذوني.

وخِلالَ نقلهِ للطعامِ كَانَ يردُ كلماتِ الاعتذارِ للضُّيوفِ، ومن شدَّةِ خجلهِ لم يتناولْ لقمةً واحدةً عندَ الإفطارِ.

وعندَ توديعهِ للضُّيوفِ كرَّرَ اعتذارَه مرَّاتٍ ومرَّاتٍ، وعندَ البابِ الخارجيِّ قالَ السَّيدُ عارف موجهاً كلامَه لهم:

ـ أَرْجوكم اعذروني، هذا لا يحسبُ إفطاراً، أَرْجوكم قبولَ دعوتي الأُسْبُوع القادِم. وبحضورِكم أَسْتَطِيعُ أنْ أسامحَ نفسي.

ـ لا نريدُ إزعاجَك ياسيِّد عارف.

ـ أيُّ إزعاجٍ هذا؟

أرجُو أن تَقبلوا دَعوتي ثانيةً لأعوِّضَ عن تَقصيري.

ـ حَسناً، سوفَ نَحضرُ.

وحتَّى لا يَكسروا بخاطرِه قَرَّرُوا قبولَ الدَّعوةِ.

وبعدَ أُسْبُوعٍ، وفي مساءِ الخميسِ وقبلَ موعدِ الإفطارِ بعشرِ دقائقَ، دقَّ جرسُ البابِ.

وكَانَ عارف يستقبلُهم عندَ البابِ، ونادَى زوجتَه من الطَّابقِ السُّفلي:

ـ عزيزتي، أَيْنَ كَانَتْ مقلاةُ البيضِ؟

ومِن جديدٍ صرختْ زوجتُه بِهتافاتِ التَّرحيبِ، وأَمَامَ الضُّيوفِ الجالسينَ في صالونِ الطَّابقِ الثَّاني.

كَانَ السَّيدُ عارف ينقلُ أطباقَ البيضِ كالمكوكِ!

# هَلْ تَعْرِفُونَ القُرآنَ؟

كَانَ هُناكَ ضابطٌ شابٌّ ومحبوبٌ، ابتعدَ عنِ البحرِ مُنْذُ زمنٍ طويلٍ، وكَانَ حبُّ البحرِ يسكنُ قلبَه، وحتَّى يتخلَّصَ من حبِّه ذاكَ كَانَ يتوجَّبُ عَلَيْهِ دفنُه في قلبِهِ!.

ولأَجلِ ذَلِكَ ركبَ السَّفينةَ الَّتِي سرعانَ ما مخرت عبابَ البحر متَّجهةً إلى إيطاليا، ومن أعلى السَّفينة تأمَّلَ الأفقَ. ومرَّ الوقت دونَ أيِّ كلمةٍ، ولم تستطعْ حتَّى النَّوارس أن تفسدَ خلوتَه.

وفي وسط هذا البحر الأزرق الكبير بدتِ السَّفينة كنقطة. في حين كَانَت كَبيرةً عندَ الميناء، وعِنْدَما اجتازت البحرَ بدت كحبة الرَّمل!

وفكَّرَ أنَّ كلَّ شيءٍ كبيرٍ يُوجَدُ ما هو أكبر منه؛ أكبر منَ الأَنهار البحيرات، وأكبر من البحيرات البحار، وأكبر منَ البحار المحيطات.

كلُّ شيءٍ أصله من الماء.

فقط شيءٌ وحيدٌ لا يُوجَدُ أكبر منه، ولا يمكن أن يُوجَدَ، وبَدَأَ يفكِّر في الأشياء من الكبير إلى الأكبر، من السَّفينة ومن البَحر.

بَيْنَمَا كَانَ مستغرقاً بالتَّفكير لم يشعر بقدوم صديقه الضَّابط، استدارَ نحوه ثم أشارَ برأسه إلى البحر:

ـ هيَّا أيّها البحر الأبيض المتوسِّط: أنتَ في زمنٍ ما لم تكن بحراً.

ـ ماذا يَعني هذا؟ لم يكن بحراً!! هذا البحر كَانَ دائماً بحراً.

ـ أنا أقصد أنَّه كَانَ بحيرةً تركيَّة، هَلْ تتصوَّر هذا؟ إنَّ كلَّ سواحل هذا البحر كَانَت لنا؟ كَانَ هذا بَحرَنا.

ـ هذا صحيح! المغرب، تونس، الجزائر، ليبيا، مصر، لبنان، سوريا، فلسطين، كَانَت في وقتٍ ما لنا.

ـ هَلْ هذا فقطْ؟

ـ قبرص، رودوس، كرواتيا، اليونان، صربيا، ألبانيا...

في ذاكَ الزَّمانِ، وبتلكَ التّكنولوجيا البحريَّة، كنَّا نسيطر على كلِّ تِلْكَ المساحةِ من الماءِ.

فَقَطْ فرنسا وإسبانيا لم تكونا تحتَ سَيطرتنا.

ـ كَيفَ تقول إذاً أنَّ البحرَ كَانَ لنا؟

ـ مدنٌ فرنسيَّةٌ كثيرةٌ أخذَها البربر من الألمان وأعطوها للفرنسيينَ، وإسبانيا كَانَت تدفع الجزيةَ للدَّولة العثمانية، والقوات الصَّليبيَّة البحريَّة كي تبحرَ في البحر المتوسِّط يجبُ أن تتبعَ البربرَ.

وبعدَ يومين من الإبحار بدتِ السَّواحل الإيطاليَّة، وعلى صوتِ توفيق استيقظَ أحمدُ:

ـ حضرةَ السَّيد أحمد باشا! السَّواحلُ الإيطاليَّةُ تنتظرُ الفتحَ الكبيرَ، وقلعةُ الكفرة الرَّمليَّةُ رفضَت عرضَنا، بإمكَانِنا السَّيطرةُ على القلعة، ولكن علَينا انتظار المعدَّاتِ.

ـ دعْكَ من السُّخريةِ، أنا قادمٌ.

وباقترابِ السَّفينَةِ من الميناءِ كَانَ الضَّابطانِ يستعدَّان للنُّزول، بعدَ أخذِ الإذنِ للتَّجوُّلِ في المدينةِ من قبطانِ السَّفينَةِ.

كَانَتِ المدينةُ تشبهُ المدن السَّاحلية، مليئةً بأشجارِ الزَّيتونِ والبرتقالِ، بَيْنَمَا كَانَتْ أشجارُ النَّخيل تملأُ السَّاحاتِ في مركزِ المدينةِ. وعلى طولِ السَّاحل كَانَتِ البيوتُ المكوَّنةُ من عدةِ طوابقَ، والمطليَّة باللونِ الأبيضِ تشكِّل منظراً خلَّاباً، وتظهرُ من خلفِها العماراتُ الشَّاهقةُ الحديثةُ.

بَدَأَ أحمدُ وتوفيقُ بزيارة متاحفِ المدينةِ، أوَّل متحفٍ زاراهُ كَانَ مليئاً بالآثارِ الرُّومانيةِ القديمةِ، حَيْثُ قِطعُ التَّماثيل والكتبُ القديمةُ والمخطوطاتُ، وقطعُ النُّقودِ الذَّهَبَّيةِ والفضِّيَّة، والسُّيوفُ، والدُّروعُ المزخرفةُ وعَلَيْهِا إشاراتُ الصَّليب، والملابسُ العسكريةُ العائدةُ للفترة الرُّومانية، وكلُّ ما هو عائدٌ لتلك الفترة معروضٌ في هذا المتحفِ.

أحمدُ هامساً في إذنِ توفيق:

ـ هَلْ نَحنُ مَن هدمَ شرقَ وغربَ الحضارةِ الرُّومانيَّةِ؟

قال مبتسماً:

ـ نعم، أتيلا وفاتح.

مباشرةً إلى جانبِ المتحفِ كَانَت هُناكَ كنيسةٌ. في البِدَايَةِ تردَّدا بالدُّخول ثمَّ شَعرا بالفضول وقَرَّرا الدُّخولَ.

كَانَ طراز الكنيسةِ من الدَّاخلِ يتألَّف من نوافذَ صغيرةٍ، تسمحُ بمرورِ النَّسائمِ الباردةِ، وجذبتِ انتباهَهم أيقونةٌ للسَّيِّدةِ العذراءِ الَّتِي يمكن مشاهدتها فورَ دخولِك، وفي الوسطِ يُوجَدُ صليبٌ كبيرٌ جدّاً، وعلى جانبَيهِ اثنانِ صغيرانِ. كما يُوجَدُ في الكنيسةِ عددٌ من الأشخاصِ يصلُّون ويوقدون الشُّموعَ.

أكثر ما جذبَ نظرَيهما هو دقَّةُ تنفيذِ الزَّخارفِ، والتَّفاصيلُ الدَّقيقةُ في الكنيسةِ، وبَيْنَمَا هما غارقانِ في تأمُّلِ جمالِ التَّصميمِ الدَّاخلي للكنيسةِ، جَاءَ صوتُ أحدِ رهبانِ الكنيسةِ من الخلفِ، قائلاً بالإنكليزيةِ:

ـ أهلاً وسهلاً بكما.

التفتَا إلى مصدرِ الصَّوتِ، وأجابَ أحمدُ:

ـ شكراً لك.

ـ كَأَنَّكُم غرباءُ، من أَيْنَ أتيتما؟

ـ جِئنا من تركيَّا.

شهقَ الرَّاهب لسماعهِ الجوابَ، وكَأَنَّهُ تلقَّى خبراً مفرحاً ينتظرُه مُنْذُ زمنٍ بعيدٍ، وبارتباكٍ شديدٍ شدَّ على أيديهما.

ـ أنتمْ أتراكٌ إذاً! تشرَّفتُ بمعرفتكُم.

ـ ونَحنُ أيضاً.

ونظرَ إلَيهما الرَّاهبُ بغرابةٍ قليلاً، ثمَّ ابتسمَ للشَّابَّينِ قائلاً:

ـ إنْ تقبَلانِ دَعوتي فلنصعدْ لغرفَتي، أريدُ أنْ أَستضيفَكما.

ـ ولكن عَلينا العودة إلى السَّفينَةِ.

لم يشعرِ الشَّابَّانِ بالارتياحِ من دعوةِ الرَّاهبِ لهما، قالَ توفيق هامساً لصديقهِ أحمدَ:

ـ لقدْ علمَ للتَّوِّ أنَّنا تركيَّانِ، ولن ندعَه ينتقمُ من الدَّولةِ العثمانيةِ.

قال أحمد معترضاً:

ـ لا تكنْ سخيفاً، في العصرِ الَّذِي نعيشُه نَحنُ لم يبقَ حربٌ.

فهمَ الرَّاهب من تهامُسِ الشَّابَّان بلغتِهما أنَّهما لنْ يَقبلا دعوتَه، لذَلِكَ أصرَّ مرَّةً ثانيةً. قالَ توفيق متردِّداً.

ـ قال هامساً:

ـ كلَّا، أشعرُ بالضِّيقِ هنا، برأيي لنخرج مِن هُنا فوراً.

ثمَّ قالَ للرَّاهبِ:

ـ شكراً جزيلاً لدعوتِك.

فقالَ أحمدُ مقاطعاً:

ـ أَيْنَ غرفتُكم؟ لنذْهَب إليها.

لم يبالِ أحمدُ بنكزة كوعِ توفيق له، بل تأثَّر بمدى سعادة وصدقِ مشاعرِ الرَّاهبِ، صعدوا إلى الأعلى، وفي القسمِ الجانبي من الطَّابقِ العلويِّ درج مظلِمٌ. صعدَ الرَّاهبُ مَعَ الشَّابَّينِ إلى الغرفةِ.

ـ ماذا تشربونَ ياسادةُ؟ سَائلاً توفيقَ.

جلسَ الرَّاهب على كرسيِّه، ومدَّ يدَه إلى جهاز التَّحَكم ضاغطاً على أحدِ الأزرارِ، فدخلَ بعدَ قليلٍ موظَّفٌ مسنٌّ قائلاً بالإيطاليَّة:

ـ تفضَّلوا يا سيِّدي.

ـ سباستيان أحضرَ لنا ثلاثةَ فناجينَ من القهوة التُّركيَّة.

قال الموظَّف المسنُّ خارجاً:

ـ بالتَّأكيد يا سيِّدي.

قال الراهب:

ـ لقد عملتُ كموظفٍ في الكنيسةِ الكاثوليكيةِ في إسطنبول لمدَّةٍ معينةٍ، أَثْناءَ الحربِ العالميَّةِ الأولى، في أيَّامي الأولى زرتُ أياصوفيا، في ذَلِكَ الوقتِ كَانَتْ تُقامُ الصَّلاةُ في أياصوفيا. بعدَ انتهاءِ الصَّلاةِ فكَّرت في الدُّخولِ إليها. وبَيْنَمَا كنتُ أتجوَّلُ في حديقةِ أياصوفيا سمعت صوتاً.

يا إلهي كَم لهذا الصَّوت من تأثيرٍ روحانيٍّ كبيرٍ على النَّفسِ، لم أستطعِ التَّحمُّل فدخلتِ للدَّاخلِ، وأصغيتُ لذَلِكَ الصَّوتِ لأوَّلِ مرَّةٍ في حَياتِي لعدَّةِ دقائقَ.

نظرَ أحمدُ وتوفيقُ إلى بعضهِما بتعجُّبٍ. بَيْنَمَا أكملَ الرَّاهبُ حديثَه.

ـ تبيَّنَ أنَّ هذا الصَّوتَ هو القرآنُ. يا لهُ من صوتٍ عظيمٍ، فيه انسجامٌ غير معقولٍ، يا له من تأثيرٍ يسيطرُ على

كيان الإنسانِ، له نغمٌ موسيقيٌّ يشرحُ القلوبَ. كلُّ الكائناتِ توقَّفتْ، وهذا الصَّوتُ يذهَبُ بالكائناتِ إلى اللَّانهايةِ.

لم أكنْ أفهمُ ما قرأَ، ولكنَّ هذا النَّغمَ استثنائيٌّ، وليسَ له مثيلٌ. فيما بعد بَدَأتُ بالذَّهابِ إلى الجامعِ خِفيةً لسماعِ القُرآنِ. أنتظرُ انتهاءَ المصلِّينَ من الصَّلاة لأَجلِسَ إلى زاويةٍ، وأستمعَ إلى القرآنِ، ولكي لا ألفتَ الأنَظارَ كنت أنتقل من جامعٍ إلى آخرَ.

مرَّةً كنت أذهَبُ إلى أياصوفيا، ومرَّةً أُخْرَى إلى جامعِ السُّلطانِ سليمانَ. وكنتُ أتردَّد أكثرَ على جامع السُّلطانِ بيازيد. أجلس في الخلف، وأستمع إلى القرآن، وفي بعض الأحيان ينتبه لي بعضُ المصلِّينَ، ولكن لم يَقُولوا لي شيئاً.

ـ في أيِّ زمنٍ حدثَ هذا؟

ـ (1908) وكنتُ في الخامسة والثلاثين، الآن أنا في السَّابعة والسَّبعين. لقد انتظرتُكم اثنين وأربعين سنةً.

ـ هَلِ انتظرتَنا نَحنُ؟ لماذا؟

لم يجبِ الرَّاهبُ، ونهضَ من مَكَانه وسط نظراتِ الدَّهشةِ والحيرةِ لكلٍّ من أحمدَ وتوفيق، وتوجَّه إلى خزانةٍ

قديمةٍ مُخرجاً منها صندوقاً خشبيّاً، في داخله صندوقٌ آخرُ مقفولٌ، ملفوفٌ بقطعةِ قُماشٍ، وفتحَ الدُّرجَ مخرجاً منه قطعةَ قماشٍ بدَاخلها مفتاحُ الصُّندوق. فتحَ الصُّندوقَ فكَانَ بدَاخله خريطةٌ، وكتابٌ ملفوفٌ بقطعةِ القماشِ. فتحَ قطعةَ القماش برُويَّةٍ، وقدَّمَ الكتابَ لتوفيق. حاولَ توفيق أن يفهمَ ما هذا الكتاب!

ـ ما هذا؟

ـ هذا القرآن الكريم ! أنا مسيحيٌّ، ولكنِّي عاشقٌ لصوتِ القرآنِ الكريمِ. كنتُ قد أخذتُ هذا القرآنَ خُفيةً عِنْدَما كنت في إسطنبول، وخبَّأتُه كي لا يراهُ أحدٌ، والحمدُ لله، وبعد مرور (42) سنة، جئتمْ أنتم! من فضلكم هلَّا قرأتُم لي بعضاً من القرآنِ.

جلسَ الرَّاهب على الكرسيِّ واضعاً يديه على ركبتَيه، وأمالَ برأسه للأَمَامِ باحترامٍ، وأغمضَ عينَيه، وجهَّز نفسَه لسماع القرآن الكريم.

أحسَّ توفيق وكَأنَّ ماءً ساخناً صُبَّ فوقَ رأسه، وقالَ هامساً لأحمدَ:

ـ أتعرفُ كَيفَ تقرأُ القرآنَ؟

ـ لا، لا أعرفُ!.

عِنْدَما كنتُ صغيراً حفظتُ بعضَ السُّورِ القصيرةِ والأدعيةِ. ولكنَّني الآنَ لا أسْتَطِيعُ التَّذكُّرَ.

نظرَ بعضهم إلى بعضٍ بحَيرةٍ، واحمرَّ وجهُ أحمدَ من الخجلِ، وشعرَ بالإحراج الشَّديدِ من هذا الموقِفِ.

كَانَ الرَّاهب ينتظرُ، وكَانَ من الواجب على أحمدَ قول أيِّ شيءٍ، لكنَّه لم يفعل. فالتفتَ إلى الرَّاهب، وقالَ بصوتٍ مُرتجفٍ:

ـ نَحنُ آسفانِ يا سيِّدي، نَحنُ لا نعرف كَيفَ نقرأ القرآنَ!.

قامَ الرَّاهب فجأةً من مقعده بشكلٍ غير مُتوقَّعٍ، وفجأةً تغيَّرت ملامحه، وانقلبَ حاله من شخصٍ لطيفٍ ومبتسمٍ، إلى شخصٍ مقطَّب الحاجبَين غاضب. ولكنَّه لم يقل شيئاً. وأخذَ القرآنَ من يد أحمدَ، وأشارَ بيده إلى الباب قائلاً:

ـ اخرجا حالاً من هنا. من لا يعرف قراءةَ كتاب دينه ليسَ له مكَان عِنْدِي، اخرجا من هنا بسرعةٍ.

خرجَ الشَّابَّان بسرعةٍ من الكنيسةِ، ولم يتوقَّعا أنَّهما في يومٍ من الأيَّام سيُطردان من الكنيسة لعدم معرفتهما بقراءة القرآن. وعادا إلى السَّفينَةِ.

فورَ عودة أحمدَ إلى تركيَّا بَدَأَ بتعلُّم القرآن الكريم. وكلَّما تذكَّر تِلْكَ الحادثةَ شعرَ بالخجل الشَّديدِ.

**رَوى لي هَذِهِ الحادثةَ صديقي الغالي**
**(السَّيد سلامي والد أحمد)،**
**وأنا أهديه كلَّ احترامي وشكري الخالص**

# سُنَّةُ الصُّبْحِ

ـ يا حاجّ مصطفى، هَلْ يعقلُ أن تكونَ حاجّاً ولا تأتي لصلاة الفجر؟ في الحَقيقَةِ صلاةُ الفجرِ ليستْ بثقيلةٍ إلا على المنافقينَ. أيقظْ نفسَكَ وأبعدْ شيطانَك.

جَاءَ هذا الكلامُ ثقيلاً على الحاجِّ مصطفى الَّذِي مضى سنتانِ على قيامِه بالحجِّ بالرغمِ من كونهِ رجلاً متديِّناً إلَّا أنَّه لم يعتدْ على الذَّهابِ لصلاةِ الفجرِ، حَيْثُ يأوي إلى فراشهِ متأخراً بِسَببِ متابعتهِ لبرامجِ التِّلفازِ حتَّى وقتٍ متأخرٍ من كلِّ ليلةٍ. وعندَ صياحِ الدِّيكِ يكونُ الحاجُّ مصطفى مستغرقاً في نومٍ عميقٍ، وحسب رأي رُوَّاد الجامع أن الحاجَّ شابّاً كَانَ أم كهلاً عَلَيْهِ القدوم لصلاةِ الفجرِ.

وذاتَ يومٍ قَرَّرَ الذَّهابَ إلى الجامعِ لصلاةِ الفجرِ، فقالَ لزوجته:

ـ ناريمان، أيقظِيني باكراً لأنَّني سأذهَبُ للصَّلاةِ في الجامعِ.

ـ إنْ شَاءَ اللهُ.

كَانَتِ الزَّوجةُ تعلمُ كَم أنَّ إيقاظَ زوجها عملٌ صعبٌ، وعندَ حلول الفجرِ فتحَ الحاجُّ عينَيه بصعوبةٍ على صوت زوجته وهي تُوقِظه:

ـ هيَّا يا مصطفى حانَ وقت صلاة الفجر.

فتحَ إحدَى عينَيه، ولم يكن يُريدُ أن يفسدَ نومَه.

ـ حسناً حسناً، سأنهض.

ـ النَّاس يتكلَّمونَ بحقِّكَ، وأنا أصبحتُ محرجةً من كلامِ الجيرانِ، أَرْجوكَ استيقظْ، حتَّى أطفال الجيرانِ استيقَظوا على وقعِ صوتي.

ـ حسناً، حسناً سأستيقظُ.

ـ أعرفُ ما تعني بكلمةِ «سأستيقظُ».

وسحبتِ الوسادةَ من تحتِ رأسهِ، وكادَ أن يتشاجرَ مَعَ زوجته لولا أنَّ الوقتَ كَانَ غيرَ مناسبٍ، وأخيراً قامَ الحاجُّ من سريره مُتَرنِّحاً، وبالكاد استطاعَ الوضوءَ، وذَهَبَ إلى

الجامع، ومرَّت ساعةٌ على ذهابه إلى الجامع، وزوجته منتظرةٌ قدومَه.

ـ هه أَتى، هه سيأتي.

مرَّت ساعتان على هَذِهِ الحال، ولكنَّ مصطفى لم يعدْ. قالت لنفسها:

ـ على الأغلبِ أنَّ الحاجَّ انشغلَ بالحديث مَعَ أصحابه في الجامع ولم تُعِرْ لغيابه أهمِّيَّةً كبيرةً في البِدَايَةِ، وقامتْ بتسخين الشَّاي مرَّةً أُخْرَى، ومرَّتْ ساعاتٌ ولا يُوجَدُ أيُّ خبرٍ عن مصطفى، وعند بلوغِ السَّاعة العاشرة، قالت ناريمان لنفسها:

ـ لا يمكن أن يذهَبَ إلى مَكَان آخرَ قبل أن يخبرَني.

وبَدَأَت بالقلقِ.

مرَّ على زواجهما سنتانِ، ولم يحدثْ وأن خرجَ من المنزل دونَ تناول طعام الإفطار، ولكنَّ السَّاعةَ تجاوزتِ العاشرة، ولم يظهرْ مصطفى.

قالتْ لنفسِها:

ـ هَلْ يعقلُ أن يكونَ أصابَه مكروه؟

اتّصلَت بمصطفى، ولكنَّها أدركتْ أنَّه نسي الهاتفَ عِنْدَما سمعت صوتَ الهاتف يأتي من غرفة النوم.

خرجتْ إلى الشَّارعِ تسألُ عن مصطفى، فكَانَ جوابُ الجميعِ أنَّ أحداً لم يرَه، ذَهَبَتْ بِدَايَةً إلى الجامع فوجدَته مغلقاً، ولا يُوجَدُ أحدٌ في الحديقة، بحثتْ عنه في المقهى وعندَ الحلَّاقِ وعندَ بائع الخضار وعندَ الخيَّاطِ، وسألتْ صبيَّ الدُّكَّان عن معلِّمه مصطفى، فأجابَ بأنَّه لم يأتِ بعدُ، وسأل:

ـ خيراً إنْ شَاءَ اللهُ، هَلْ أصابَه مكروهٌ ما؟

وهذا ما زادَ من قلق ناريمان، وكَأنَّ الأرضَ قدِ انشقَّت وابتلعَته، فذَهَبَتْ إلى بيتِ إِمَامِ الجامعِ لتسألَ عن زوجها:

ـ يا شَيخي! إنَّ زوجي ذَهَبَ لصلاة الفجر، ولم يعد مُنْذُ ذَلِكَ الحين.

ـ لقد رأيتُه وهو قادمٌ للصَّلاةِ، ولكنِّي لم أرَه وهو خارجٌ.

ـ أَيْنَ يمكن أن يكونَ قد ذَهَبَ؟!.

ـ يُوجَدُ جانبُ الجامع مقهى لشرب الشاي، إذا أردتِ اذهَبي إلى هُناكَ واسأَلي.

ذَهَبَت إلى هُناكَ وسألَت، فأجابَها العمُّ أحمد:

ـ لقد كنَّا تسعةَ أشخاصٍ في صلاة الفجر، ولكنَّ مصطفى لم يكن موجوداً.

عندَ سماعها لهذا الكلامِ ازدادَ قلقها كثيراً وشعرَت بالذَّنب.

وعندَ بلوغ السَّاعة الحادية عشر عادَت إلى البيت، عسى أن يكونَ قد عادَ مصطفى، وفي تِلْكَ الأَثْناءِ سَمعت أَصواتاً من الخارج تبيَّنَ أنَّها مجادلةٌ بين الضَّابط والبائع المتجوِّلِ.

اتَّصلَت زوجةُ مصطفَى بأقاربهِ على أملِ أن يكونَ قد ذَهَبَ إليهم، واتَّصلَت بأصدقائه، ولكن دونَ جَدوَى. فكَّرَت بالاتِّصالِ بالشُّرطة، ولكن المشكلة أنَّه رجلٌ كبيرٌ، وليسَ طفلاً ليضيعَ وهو يعرف منطقتَه جيِّداً، لأنَّه ترعرعَ فيها وكل أهل المنطقة يعرفونَه.

أرهقَ التَّفكير زوجةَ مصطفى، أصبحت تتَخيَّل أشياء من المستحيلِ أن تحدثَ. مرَّ الوقت وحانَ وقت صلاة الظُّهر، وقالت في نفسِها:

ـ لقدْ أرسلتُه إلى الصَّلاةِ رغماً عنه، وحتَّى الآنَ لم يعُدْ، يا إلهي ماذا فعلتُ؟!

وجلستْ حائرةً في أمرها لا تعرفُ ماذا تفعلُ.

استيقظَ مصطفى وهو يشعرُ بألمٍ شديدٍ في ظهرهِ، واتَّجهَ إلى الباب بسرعةٍ فوجدَه مقفلاً من الخارج، فنظرَ إلى النَّافذة فوجدَها محدَّدةً بقضبان منَ الحديدِ.

ـ لقد حُبستُ في الجامع.

حدَّثَ نفسَه، ثمَّ بَدَأَ ينادي بصوتٍ عالٍ:

ـ ألا يُوجَدُ أحدٌ هنا؟

ولكنَّه لم يتلقَّ أيَّ إجابةٍ، وبقيَ لوقتٍ طويلٍ على حالته، وكَانَ يفكِّر كَيفَ من الممكنِ الحصولُ على المساعدةِ للخروجِ من هذا المأزِقِ. وأمسكَ مكبِّرَ الصَّوت، ولكن كَيفَ لخياطٍ أن يعرفَ كيفيَّةَ استخدام المُكبِّر؟! فأمسَكَه وقلَّبَه يُمنةً ويُسرةً، وحاولَ استعمالَه ولم يعرف ماذا سيَقُولُ.

ونقرَ المكبِّرَ نقرتَين، ونفخَ فيه عدَّةَ نفخاتٍ، ففكَّرَ ماذا سيَقُول؟ إن قالَ أنَّه بقيَ محبوساً في الجامع سيكون موضعَ

سخريةِ أهلِ الحيِّ، ويَقُولون أنَّه حبسَ في الجامع، وفي كلِّ مرَّةٍ يرونَه سيَقُولون: «هذا الَّذِي حُبسَ في الجامعِ».

ـ منَ الأفضل أن أتركَ هذا المكبِّرَ، لأنَّ وقتَ صلاة الظُّهر قدِ اقتربَ، وسيأتونَ لفتحِ الجامعِ، هكذا فكَّرَ وأغلقَ المكبِّرَ.

في هَذِهِ الأَثْناء تذكَّرَ زوجتَه، وفكَّر أنَّها ستكون قلقةً جدّاً، وغضبَ من نفسه لأنَّه نسيَ هاتفَه في البيتِ.

ومرَّتْ هَذِهِ السَّاعات طويلةً أَمَامَ عينَيه، ومرَّةً أُخْرَى أخذَ المكبِّرَ ونفخَ فيه:

ـ يا إلهي! ماذا سأقولُ؟ قالَ لنفسِه. وخطَرَ في باله أن يَقُولَ كلمةَ (ألو)، ثمَّ قالَ لنفسه:

ـ هلْ هذا هاتفٌ لأقولَ (ألو)؟

فترك المكبِّرَ مرَّةً أُخْرَى، وعادَ ليحدِّثَ نفسَه:

ـ ما الفرقُ بينَ المكبِّرِ والهاتفِ، ألا أتَحدَّث بالهاتفِ؟ إذاً أسْتَطِيعُ التَّحدثَ بالمكبِّر.

وأخذَ المكبِّرَ بيدِهِ من جديدٍ، وحدَّثَ نفسَه قائلاً:

ـ لأجرِّبَ هَذِهِ المرَّةَ أيضاً: تجربة.. تجربة.. واحد.. اثنان.. تجربة الصَّوت.

بَدَأَ بالتعرُّقِ، وأخذَ يحكُّ جسمَه كما يحدثُ معه عِنْدَما يشعرُ أنَّه في مشكلةٍ صعبةٍ. ثمَّ أخذَ المكبِّرَ بيده، وقال:

ـ أصدقائي! أنا الخيَّاطُ مصطفى، أنا الآنَ محبوسٌ في الجامعِ، وباسمِ الإنسانيَّة، مَن سمعَ صوتي فليبلِّغِ الإِمَامَ أنْ يأتيَ ويفتحَ الجامعَ، أُعيدُ وأكرِّرُ: مَن سمعَ صوتي فليبلِّغِ الإِمَامَ.

ثمَّ تذكَّرَ الشَّابُّ الَّذِي يعملُ عنده في الدُّكَّان، فأمسكَ المكبِّرَ ثانيةً، وقال:

ـ ابني شعبانُ أَيْنَ أنت؟ أسرعْ إلى الجامعِ أنا أنتظرُكَ.

في تِلْكَ الأَثْناءِ كَانَ هُناكَ جمعٌ من النَّاسِ يشربونَ الشَّاي بالقربِ من الجامعِ، فتَساءَلوا فيما بينهُم:

ـ يا سيِّد أحمد! مَن الَّذِي توفِّي؟

ـ لم أستطعْ أنْ أسمعَ جيّداً اسمَ المتوفَّى، مرَّةً قالَ: مصطفَى، ومرَّةً قالَ: شعبان.

فردَّ عَلَيْهِ أحمدُ:

ـ وأنا أيضاً لم أفهمْ، السَّيدُ أمين مريضٌ جدّاً، ربَّما هو المتوفَّى.

ـ لا تقلْ هذا، أنا كنتُ أحبُّه جدّاً، هذا يعني أنَّه هو الَّذِي توفِّي! آه يا دُنيا يا فانية!

وكَانَتْ محاولاتُ مصطفى في طَلَبِ العونِ قد وصلتْ إلى الإمَام، فعرفَ أنَّ مصطفى قد بقيَ في الجامعِ.

في تِلْكَ الأَثْناءِ كَانَتْ أشياء وأشياء قد خطرَتْ على بالِ ناريمان زوجةِ مصطفى:

ـ رُبَّما أَثْناءَ ذهابِه إلى الجامع قد صدمتْه سيَّارةٌ، أو وقعَ مغشيّاً عَلَيْهِ في مَكَان ما، قالت لنفسها:

ـ لا هذا غيرُ ممكنٍ، لقدْ رآهُ الإمَامُ وهو يدخلُ الجامعَ، وقد كَانَ معهم في سنَّة صلاة الصُّبح، ولكنَّه لم يكنْ معهم في الفرضِ.

بَدَأَتْ بالبكاءِ، وفي الوقت نفسهِ قرعَ أحدٌ البابَ، فتحتِ البابَ فإذا بطفلٍ صغيرٍ يقفُ أَمَامَ البابِ. قالت في نفسها:

ـ من المؤكَّدِ أنَّ شيئاً ما قد حَصَلَ.

سأل الطِّفل:

ـ هلْ هذا هو بيتُ السَّيدِ مصطفى؟

ـ نعم يا ولدي.

ـ أَتَعنينَ أنَّ هذا هو بيتُ الخيَّاطِ الحاجِّ مصطفى؟

ـ نعم يا طِفلي، أحَصَلَ مكروهٌ ما؟

كَانَتْ يداها قد بَدَأَتا بالارتجافِ، وهيَّأتْ نفسَها لسماعِ خبرٍ سيِّءٍ، وشعرتْ بالعجز، وأنَّها بلا حيلةٍ.

ـ لقدْ جئتُ لإبلاغك أنَّهُم قد وجدوا الحاجَّ مصطفى في الجامعِ.

ـ هَلْ هو حيٌّ؟!

شعرتِ الزَّوجة بالخوف الشَّديد، وأسرعتْ إلى الجامعِ فوجدتْهم قد بدؤوا بصلاةِ الجماعةِ فانتظرتْهم حتَّى انتهوا من الصَّلاة، وبَدَأَ المصلُّون بالخروجِ، واستطاعتِ المرأةُ أن ترى زوجَها، وركضتْ إليه لتعانقَه، ونادت:

ـ مصطفى!

فأجابَها مصطفى مازحاً:

ـ هل بقيتِ أنتِ أيضاً في الجامع؟

ردَّت عَلَيْهِ:

ـ لقدْ قلقتُ عليكَ كثيراً، خرجتَ مُنْذُ الصَّباح ولم تعُدْ، كنتُ أبحثُ عنكَ طيلةَ هذا الوقت.

في تِلْكَ الأَثْناءِ قاطعَها الإمَامُ قائلاً:

ـ يا أختي! كلُّ أهل الحيِّ قد سمعوا صوتَ زوجكِ، ومن المؤكَّد أنَّك سمعتِيه أيضاً، ورغمَ ذَلِكَ أرسلتُ طفلاً ليُطَمئِنكِ.

نظرتِ المرأةُ إلى مصطفى، ولم تفهمْ ماذا يعني الإمَام، فقالَ مصطفى:

ـ فيما بعدُ، فيما بعدُ. لقدْ أتيتُ لصلاة الفجر، صليتُ سنَّة الفجر، ثمَّ انتظرتُ الإمَامَ طويلاً وهو يقرأُ القرآنَ صفحةً تلوَ الأُخْرَى، وقلتُ لنفسي: «لم يبدؤوا الصَّلاة بعد» فأوضحَ لي الإمَامُ أنَّ صلاةَ الفجر لا تشبه بقيَّةَ الصَّلوات، فقلتُ لنفسي: «لأذهَبَ قليلاً خلفَ الدَّرجِ وأرتاحَ لحين إقامةِ الصَّلاة»، ولم أستيقظْ إلَّا في الحادية عشر!. حاولتُ الخروجَ من البابِ فوجدتُه مقفلاً. صرختُ في الجامعِ فلم يسمعْني أحدٌ، وفكَّرتُ أنَّه من سَيأتي إلى الجامعِ بعدَ صلاةِ الفجرِ.

أَثْناءَ حديثِ مصطفى وشرحِه للحادثةِ قاطعَه الإمَامُ قائلاً:

ـ عِنْدَما رأيتُك على هَذِهِ الحالةِ تذكَّرتُ حديثَ الرَّسول عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ.

ـ أيُّ حديثٍ يا شيخي؟

ـ «سبعةٌ يظلُّهم اللهُ في ظلِّه يومَ لا ظلَّ إلا ظلِّه، إمَامٌ عادلٌ، وشابٌّ نشأَ في عبادةِ اللهِ، ورجلٌ قلبُه معلَّقٌ بالمساجدِ، ورجلانِ تحابَّا في اللهِ اجتَمَعا عَلَيْهِ وتفرَّقا عَلَيْهِ، ورجلٌ دعتهُ امرأةٌ ذاتُ منصبٍ وجمالٍ فَقَالَ: إنِّي أخافُ اللهَ. ورجلٌ تصدَّقَ بصدقةٍ فأخفَاها حتَّى لا تعلمَ شمالُه ما تنفقُ يمينُه، ورجلٌ ذكرَ اللهَ خالياً ففاضَت عيناهُ».

ـ ما أجملَ قولكَ يا شيخي!

ـ يا سيِّد مصطفى! أنتَ أيضاً إنْ شَاءَ اللهُ سيكونُ قلبُكَ معلَّقاً بالمسجدِ.

ـ إنْ شَاءَ اللهُ يا شيخي.

وعادَ إلى منزلِهِ هو وزوجتُه لتناولِ الفطورِ.

# الإِجَاصُ وحِذَاءُ الرِّيَاضَةِ

السنة (1980)، الفصلُ صيف، المكَانُ: غرفةٌ في الجامع تقامُ فيها دوراتُ تعليمِ القرآنِ.

كَانوا أكثرَ من عشرينَ طالباً، يجلسونَ على ركَبهم، يحاولونَ تعلُّمَ هجَاء آياتِ القرآنِ الكريمِ.

في كلِّ صيفٍ وبعدَ عدَّةِ أيَّامٍ منِ انتهاءِ العطلةِ المدرسيَّةِ، نذهَبُ إلى دوراتِ القرآنِ، وكنتُ أصطحبُ ابنَ جيرانِنا، وهو في مثلِ عمري، اسمُه محمدُ علي.

لم يكن محمدٌ يحبُّ الدَّورةَ كثيراً، كنتُ من مُشجِّعيّ نادي فناربهشة، بَيْنَمَا كَانَ هو يشجعُ نادياً آخرَ، اسمُه جيمبوم. وكي لا يتركَ دورةَ القرآن الكريم اشترَى له والده كرةً حمراءَ وأُخْرَى صفراءَ، ولم أكنْ أعرفُ لماذا كنَّا نشجِّع فرقَ إسطنبول. فأنا لم أذهَبْ إلى إسطنبول أبَداً،

ولم أرَ فريقَ فناربهشة، ولكنَّني مَعَ هذا أشجِّعه ومستعدٌّ للقتالِ من أجلهِ.

صديقي محمد علي مثلي أيضاً. ويُوجَدُ من أصدقائِنا من يشجعونَ فرقَ مدنِهم، فمثلاً إسماعيلُ يشجِّع فريقَ ترابزون، وفرقانُ وإيمرة من مشجعيِّ فريقِ أضنةَ.

في السَّنة الماضيةِ أقيمتْ بطولةٌ في أضنةَ، وفازتْ بالمرتبةِ الثَّانيةِ، وكنتُ أتذكَّر تِلْكَ البطولةَ جيِّداً.

في منطقتِنا كَانَتِ القلاعُ الحجريَّة تملأُ المكَانَ، ولم يكنْ لدينا مكَانٌ واسعٌ، وكَانَ الملعبُ يتألَّفُ من ثلاثِ زوايا ومرمى واحدٍ.

وبما أنَّه في حيِّنا لا يُوجَدُ مكَانٌ واسعٌ لرسمِ الملعبِ بزواياهُ الأربعةِ، جعلناهُ ثلاثَ زوايا ومرمى واحداً، وبما أنَّ أرضَ الملعب مكوَّنةٌ من حجارةٍ مدبَّبةٍ كنَّا نلعبُ بصعوبةٍ، ومن دونِ إحرازِ نتيجةٍ.

ولعدمِ وجودِ النُّقودِ لدينا كنَّا نبحثُ عن لبناتٍ أو كراتٍ من الطِّينِ لنلعبَ، وكنَّا نختارُ أيُّها أكثر طراوةً.

ولكونِ قوائمِ المرمى منَ الحجرِ فكَانَ لابدَّ أنْ تكونَ

هُناكَ مشاكلُ بينَ الفريقينِ. ففي أحدِ المرَّاتِ قذفَ أحمدُ الكرةَ فجَاءَتْ فوقَ الحجر فلم تقبلِ الرَّمية كهدفٍ.

صرَّح محسنٌ قائلاً:

ـ عارضة، عارضة، وليست هدفاً.

ـ ليست عارضة، فقدِ اصطدمتْ بالحجارةِ ثمَّ دخلتْ إلى المرمى، هدفٌ ولا أجمل من ذَلِكَ.

بالرغمِ من اعتراضِهِ لم نحسبْ له الهدفَ، فاعترضَ قائلاً:

ـ إن لم تحسبوهُ سآخذُ كرتي وأذهَبُ، ويومها كَانَ جادّاً في تهديدِه.

ولم تنحصرْ مشاكلُنا في وجودِ الكرةِ، بل كَانَتْ أيضاً مشكلة إحضارِها بعدَ أن تتدحرجَ بعيداً في المنحدراتِ والمرتفعاتِ، وكنَّا نقبلُ بأيِّ ارتفاعٍ ممكنٍ أن ترتفعَ به لأنَّ المرمى مصنوعةٌ من الحجرِ، وكنَّا نضعُ أحدَ الأطفال حارساً للمَرمى، أو نقومُ نَحنُ بهَذا الدَّور.

وبصراحةٍ كنتُ في حالِ إذا خسرتُ ودخلَ هدف في نوبتي، أسرعتُ بالاختفاءِ من الملعبِ، وكَانَتِ الأهدافُ

الَّتِي تدخلُ في المرمَى لا تُحصى. وبالطَّبع كلُّنا نعتبرُ أنفسَنا لاعبينَ محترفينَ.

لأربعِ سنواتٍ كنَّا نذهَبُ لحضورِ المباراةِ في طرابزون، دونَ أن نشتريَ بطاقاتٍ، وقد رأيتُ هُناكَ الحارسَ شولا، يرتدي كنزةً صفراءَ فاقعةً وقفازاتٍ حقيقيَّةً، في حين كنَّا نعتبر أنَّ لبسَ القفازات ينقص من الرُّجولة، وأحزنَني أنَّ المتفرجينَ كَانُوا يتكلَّمونَ بحقِّه. وكَانَ الحظُّ من نصيبنا إذا وجدْنا مقعداً آخرَ ليسَ خلفَ المَرمَى.

أُسْعَدُ عندَ عدمِ تحقيقِ هدفٍ، وكَيفَ يحضنُ الحارسُ شولا الكرةَ ببراعةٍ. وأنا في عمري هذا كنتُ أعلمُ عن هَذِهِ الرِّياضةِ معلوماتٍ كثيرةً حتَّى الكبار لا يعرفونَها.

ومُنْذُ أن رأيتُ الحارسَ شولا ازدادَ هوَسي وحبِّي لكرةِ القدم، وتمنَّيتُ أن أَصْبحَ مثلَه، لكنَّ هذا لم يستمرَّ طويلاً، لأنَّني أدركتُ أنَّ هذا ليسَ مكَاني.

طبعاً في المباراةِ الَّتِي نبَدَؤها في وقتِ العصرِ، إذا لم نحرزْ بها عشرَ أهدافٍ كَانَتْ لا تنتهي إلا بسماعِ صوتِ أذانِ المغربِ (اللهُ أكبر). والَّذِي في المقدَّمةِ هو الرابحُ،

ولا يعترضُ أحدٌ على هذا. وكَانَ صوتُ الأذانِ الوحيدَ الَّذِي يُنهي المباراةَ.

كنَّا نقتطعُ من بعضِ الجرائدِ صورَ اللَّاعبينَ، ونعلِّقها على الجدرانِ وليسَ هذا فقطْ، بل نحفظُ أرقامَ الكنزاتِ التِي يرتدونَها واحداً واحداً. وكَانَ أمراً صعباً إلَّا أنَّ توزيعَه علَينا نَحنُ الثَّمانية يصبحُ سهلاً. ووصل بنا الهوسُ بالكرةِ إلى أنْ نحفظَ أماكنَ لعبِهم، وأماكنَ انتقالِهم من فريقٍ لآخرَ.

أمَّا دورةُ القرآنِ فتتألَّف من ثلاثة مراحلَ تعليميَّةٍ. المرحلةُ الأولى القراءةُ من القرآنِ، والثَّانيةُ حفظُ السُّورةِ، والثَّالثةُ المعلوماتُ الَّتِي تخصُّ الدِّينَ. وفي نهايةِ المنهجِ تُقامُ بطولةٌ للمصارعةِ، والأُسْتاذُ يُعطي هديَّةً صغيرةً لمن يُحرزُ المرتبةَ الأولى.

وأيضاً كَانَتْ بطولةُ المصارعةِ ممتعةً. فَقَطْ إذا كنتَ من المشاهدينَ، أمَّا إذا قَرَّرَتَ المشاركةَ فعندَها ستَكون من بين عشرة أشخاصٍ، ويجب أن تخطِفَ الأبصارَ بتفوُّقكَ عَلَيْهِم. وحتَّى إذا تفوَّقتَ عَلَيْهِم ستفسد سعادتَكَ

بالفوز الآلامُ الَّتِي تسبِّبها أماكن اللَّكماتِ، والَّتي تستمرُّ لمدَّة أُسْبُوع على الأقلِّ.

ذاتَ مرَّةٍ وجَّهتُ لكمةً لمحمَّد علي، وخِلالَ الملاكمةِ عضَّني من يدي فأصبحتْ زرقاءَ مدَّةَ شهرٍ.

في تِلْكَ السَّنةِ أَنهَينا المرحلةَ الأولى والثَّانيةَ من المنهجِ، وبَدَأْنا الثَّالثةَ، وكَانَ مدرِّسنا يقرأُ لنا أحياناً عن حياةِ النَّبيِّ عَلَيْهِ الصَّلاة والسَّلام، وأحياناً بعض الأحاديثِ القصيرةِ. وبعدَ انتهاءِ الدَّرسِ يوجِّهُ لنا بعضَ الأسئلةِ.

وعندَ كلِّ جوابٍ ينخطفُ لونُ محمَّد علي، وترتجفُ يداهُ، ويصبحُ شاحباً، ويتوتَّر في بِدَايَةِ الكلامِ، ويبلغُ أعلى مستوى توتُّرهِ فيطلبُ الإذنَ ليذهَبَ إلى المرحاضِ للهروبِ من الموقفِ.

وبالرَّغمِ مِن معرفتِهِ لجوابِ السُّؤالِ لا يسْتَطِيعُ الإجابةَ، أو حتَّى أن يهمسَ بكلمةٍ. والأُسْتاذُ يُعاقب من لا يعرف الإجابةَ بإحضار قطعٍ صغيرةٍ من الشُّوكولا، ليقدِّموها لمن يجيب. وإحضارُ جدول دوام الأساتذة من

حيِّنا البعيدِ إلى الأُسْتاذِ حيدر كان كنوعٍ من العقوباتِ، لكنَّه في الحقيقةِ هو متعةٌ لنا.

في إحدى المرَّات أعطَى الأُسْتاذُ لمحمَّد علي قطعةَ شوكولا ليعطيَها لي بِسَببِ إجابَتي عن بعض الأسئلَة، وأَثْناءَ عَودَتنا إلى البيت أَرادَ استعادةَ القطعة، ولكنَّني رفضتُ وأكلتُها أَمَامَه ثمَّ هربتُ. وأَثْناءَ هروبي ضَربَني بحجرٍ فأصابَ رأسي، وتورَّم مكَانُ الإصابة، وبقيتُ في السَّرير لمدَّة أُسْبُوع، ولم أستطعِ النومَ من جهة الإصابة لمدَّةٍ طويلةٍ، وكَانَ محمَّد علي يذكِّرني بهَذِهِ الحادثةِ دائماً.

نسكن أنا ومحمَّد علي في الحيِّ نفسهِ. وَكُنَّا جيراناً، ونشترك بجدار الحديقَة، لكنَّنا نذهَبُ إلى مدرستينِ مختلفتينِ، لأنَّ عائلةَ محمَّد علي انتقلتْ إلى حيِّنا مُنْذُ سنتَينِ، ومَازالَ يذهَبُ إلى مدرستهِ في حيِّه القديمِ. وكَانَ يبالغُ كثيراً بمدحِ مدرستهِ.

كَانَتْ علاماتُ دروسي جيِّدة جدّاً، ماعدا الرِّياضيات، وهو يستمرُّ باستفزازي بمدحهِ المستمرِّ لمدرستهِ، ويَقُول إنَّه يُوجَدُ ملعبٌ لكرة السَّلَّة ذو أرضيَّةٍ من

الإسمنتِ، لكي لا تتَّسخَ أقدامُهم بالطِّينِ، وفي المقصفِ يبيعونَ الشَّطائرَ والفطائرَ وأشياءَ أُخْرَى لذيذةً. ويتكلمُّ عن مدى ثقافة وارتفاع سويَّة المدرِّسينَ، وعن المخابر والإمكَانَاتِ العلميَّة المتوفِّرَة في المدرسَة، كَانَ يقصد فَقَط استفزازي ويَقُول: مَهما تكلَّمت لن أوفيَهم حقَّهم.

وأنا لم أكن بقَليلٍ، ففي إحدَى المرَّات، وبَيْنَمَا كَانَ محمَّد عائداً من مدرسته، بَدَأتُ أضربه ببقايا ثمراتِ الإجاصِ الَّتِي قطفتُها من الحديقةِ بعدَ أن أكلتُها، وأقولُ له:

ـ مادامتْ مدرستُك إلى هذا الحدِّ جيِّدةً، فلِمَ علاماتُك ضعيفةٌ في كلِّ المواد عدا الرَّسم والموسيقى؟!

ويجنُّ جنونُ محمَّد، بَيْنَمَا أستمرُّ بضَربه ببقَايَا ثمراتِ الإجاص الَّتِي أكَلتها، وكنتُ متأكِّداً أنَّه لا يسْتَطِيعُ فعلَ شيءٍ لي إلَّا أنَّني تلقَّيت منه ضربةً سبَّبتْ لي ورماً إلى جانبِ ورمِ القدمِ. كنتُ أريدُ أنْ أستمرَّ بضربه إلَّا أنَّني بالكاد نزلت عن الشَّجرة، وبَدَأت بجمع الثَّمرات وضربه بها، ولكنَّني لم أستطعْ إصابتَه، بَيْنَمَا كَانَ يجلس مقابلي يأكل ثَمرات الإجاص الَّتِي أضربُه بها:

ـ مهما فعلتَ في النِّهاية سَأمسك بكَ.

وأَمَامَ صراخي به كَانَ يهزأُ بي ويغيظني، وبعدَ دخولنا للمنزلِ، يستمرُّ بحركاتهِ الاستفزازيَّةِ من الشُّرفةِ، كنتُ سأضربُه بحجرٍ، لكن إن ضربتُه بعشرةِ أحجارٍ فلن أصيبَه إلَّا بواحدةٍ، لم أكنْ أفهمُ أنني لن أسْتَطِيعَ الوصولَ إلى براعتهِ في إصابَتي، وأظنُّ لو أنَّه لم يكن هدَّافاً جيِّداً لما أحرزَ الهدفَ.

وكَانَت دورةُ القرآنِ تقتربُ من النِّهايةِ. وفي أَحَدِ الأَيَّامِ بَدَأنا المباراة بين العصرِ والمغربِ، وكَانَ قد بقيَ على افتتاحِ المدارسِ أقلّ من شَهرٍ، وكنتُ أعلمُ أنَّه بعدَ افتتاحِ المدارسِ لن أسْتَطِيعَ رؤيتَه كثيراً، لأنَّه أَثْناءَ الأُسْبُوع سيذهَب للمدرسَة، وفي عطلة الأُسْبُوع سيذهَب إلى المعهد، وبالنِّسبة لي كَانَ الشَّيء الوحيد الَّذِي يسعدني من كون أبي غير مقتدرٍ مادِّياً، أَنه لا يسْتَطِيعُ إرسالي إلى المعهد.

ذاتَ يومٍ قال عمِّي عدنانُ لأبي عندما كَانَا يَقفان أَمَامَ بيتِنا:

ـ سيِّد ضياء، إنَّ ولدَكَ هو ولدُنا، لماذا لا ترسله إلى المعهد؟! ما رأيُك أنْ ترسلَه مَعَ محمد علي إلى المعهدِ؟ أولاً ليَستفيدَ، ثانياً هما صديقان، كي يذهَبَا ويعودَا معاً.

حكَّ أبي رأسَه، وقال:

ـ أنا بالكاد أدبِّرُ مصاريفَ العائلة لآخرِ الشَّهر، لا أَسْتَطِيعُ أن أتحمَّلَ هذا المصروفَ.

ثم قال:

ـ في الواقع هَذِهِ فكرةٌ جيِّدةٌ، سأتكلَّم مَعَ عائلتي.

ونادَاني أبي لآتي إليه، وقالَ لي:

ـ يا بنيَّ، تعالَ إلى هنا، إن عمَّكَ عدنانَ يرسل ابنَه إلى المعهد، وأنا سأرسلكَ، تذهَبَان وتعودَان معاً.

كنت أغرم عِنْدَما يبالغ أبي بلطافته معَنا أَمَامَ الغرباءِ، وأنا أيضاً كوني ابنه الكبير العَاقِل كنتُ أضيفُ إلى مُحادثتي معه: «أبي الغالي.. والدي العزيز».

أبي ممثلٌ كبيرٌ، في الحَقيقَةِ، نَحنُ ثنائيٌّ مسرحيٌّ ممتازٌ، وكَأَنَّهُ يستشيرني عن كلِّ شيءٍ قبلَ فعله كما لو أنَّنا عائلةٌ ديموقراطيَّة. وأتقنتُ أنا أيضاً دوري في أن أستمعَ

إليه كطفلٍ مطيعٍ، كما ويلعبُ «الشّبشب» دوراً رئيسيّاً في أسلوب تربيةِ أبي للأولادِ، حَيْثُ يمكن أنْ نكتبَ كتاباً عن أساليبِ وطرقِ استخدامِ «الشّبشب».

بالمناسبة، في بَيْتِنا «الشِّبشب» ليس مجرَّدَ شيءٍ يلبسُ بالقدمِ، إنَّما وسيلةٌ جيِّدةٌ لكسرِ عنادِ الطِّفل، وأنا أيضاً كنتُ عنيداً كالجدي.

ابتسمتُ لأبي، وقلتُ:

ـ أبي العزيز! لماذا تُريْدُ إرسالي إلى المعهدِ؟

ـ ستستفيدُ.

ـ أصلاً علاماتُ دروسي جيِّدةٌ جدّاً.

ثمَّ همستُ بصوتٍ منخفضٍ:

ـ باستثناءِ الرّياضيَّات.

ـ ولكنْ إذا ذَهَبتَ إلى المعهدِ ستحرزُ علاماتٍ أعلَى.

ـ لا أظنُّ يا أبي، أصلاً المدرِّسون يعطوننا الدُّروسَ بشكلٍ جيِّدٍ، وتمَّت إضافةُ اسمي في جدولِ مسابقةِ المعلوماتِ.

ـ هذا يعني أنَّهم قدِ اختاروك للمسابقةِ، هذا جيِّدٌ،

لكنْ لا تفكِّر أنَّني بإرسالكَ إلى المعهد سأتحمَّل مصاريفَ كثيرةً، سأتدبَّر أموري.

ـ كلَّا يا أبي ليسَ كذَلِكَ، إنَّ المدرِّسين يعطونَنا واجباتٍ كثيرةً أَثْناءَ الأُسْبُوعِ، إن ذَهَبتُ إلى المعهدِ كَيفَ سأتمكَّنُ من حلِّ الواجباتِ؟

كَانَ عمي عدنانُ ينظرُ إلينا بحيرةٍ ودهشةٍ، مسحَ على شعري قائلاً:

ـ ما شاءَ اللهُ يا صديقي! يا لذكاءِ ابنِكم! لو كَانَ ابني كابنِكم لما أرسلتُه أصلاً إلى المعهدِ.

في الحَقيقَةِ لم تبدُ مدرستُنا من الخارجِ جميلةً كمدرسةِ محمَّد علي؛ في حديقتِها الصَّغيرةِ يُوجَدُ مرمَى كرةِ سلَّةٍ واحدٌ، وبدون شبكٍ، وبالرَّغم من ذَلِكَ نلعبُ مباراةَ كرةِ السَّلَّة، ويعدُّون الضَّربة هدفاً عِنْدَما تدخلُ الكرةُ إلى المستطيلِ المرسومِ على المرمى، ولم يكنْ بمسألةٍ أو مشكلةٍ كبيرةٍ في أنَ تحسبَ الأهدافُ لأطفالٍ متفهِّمينَ مثلِنا.

كَانَ معلِّمنا شخصاً جيِّداً، يساعدُنا كما ولا يمكن

إنكار مساعدتِه لنا في مضاعفةِ العلاماتِ والَّتي ساعدتْنا في النَّجاحِ.

كنَّا أنا ومحمَّد علي مازلنا نذهَبُ إلى دروسِ القرآنِ، في ذَلِكَ اليومِ وعندَ خروجِنا من الدَّرسِ كلٌّ منَّا ذَهَبَ إلى مباراةِ الفريقِ الَّذِي يشجِّعه، فشكَّلنا ـ نَحنُ مشجعي فناربهشة ـ مجموعةً، وأحمدُ وزملاؤُه شكَّلوا مجموعةً أُخْرَى، ومجموعةُ باشيكتاش اجتمَعوا وشكَّلوا مجموعةً ثالثة، ومن ضمن مجموعتنا مشجعو فريقِ ترابزون، وكلٌّ منَّا اختارَ لنفسهِ اسمَ لاعبٍ مشهورٍ.

في كلِّ وقتٍ أختارُ لنفسي اسمَ اللَّاعب سلجوق، واختارَ أصدقائي أسماءَ أُخر، اختارَ محمَّد علي اسمَ هوتزيتش، فقلتُ له:

ـ لو أنَّك اخترتَ اسمَ لاعبٍ مسلمٍ، لماذا لم تختر اسمَ لاعبٍ مسلمٍ؟

وأردتُ بقولي هذا السُّخريةَ منه.

فَقَالَ لي:

ـ هذا اللَّاعب مسلمٌ، واسمُه طارق هوتزيتش.

علمتُ من محمَّد علي أنَّه يُوجَدُ لاعبونَ مسلمونَ غير أتراكٍ، وأظنُّ أنَّ محمَّد علي عندَه معلومات أكثر منِّي. وأذكرُ أنَّه في ذَلِكَ الوقتِ كَانَ قد انتقلَ اللَّاعب مصطفى إلى فريقِ كلاتاسراي، فقلتُ له:

ـ اختر اسمَ مصطفى.

فَقَالَ لي:

ـ ليسَ مِن فريقيَ الَّذِي أشجِّعه.

ولم يقبلْ عَرضي.

ومرَّ أُسْبُوعانِ، وستنتهي دورةُ القرآنِ، وتفتحُ المدارسُ.

في ذَلِكَ اليوم جَاءَ والدُ محمَّد علي إلى المباراةِ، وأحضرَ حذاءً رياضياً غالياً، لونَه أسودَ، وجوروباً رياضيّاً أبيضَ، كهديَّة لابنه لإنهاءِ المنهجِ القرآني. في حين أنَّني كنتُ في التَّرتيبِ الخامسِ، لم نصدِّقْ أعينَنا كَيفَ يمنحُ والدُ محمد علي ولدَه حذاءً رياضيّاً، إلَّا أنَّ عيبَه الوحيدَ أنَّه أكبر بمقاسينِ من نمرةِ قدمِ محمَّد علي، فعَلَيْهِ في هَذِهِ الحالةِ أن يشدَّ أربطةَ الحذاءِ جيِّداً، كي لا يفلتَ من قدمِه.

قلتُ له ساخراً:

ـ محمَّد علي! لَقَدْ أصبحتَ الآنَ لاعباً من فريقِ باشيكتاش.

وأكثر ما كَانَ يغيظُني أنَّه كَانَ يمشي مختالاً، متفاخراً بحذائهِ الجديدِ، ولم يراعِ أيَّ انتباهٍ لما كنتُ أقولُ، وهذا ما زادَ من غَضبي.

وبَيْنَمَا كنتُ أسخرُ منه، ومن حذائِه مرَّ بجانبي، وقال:

ـ انظرْ إلى حذائكَ أولاً.

فنظرتُ إلى حذائي القديمِ القديمِ، وكَانَ أصبعي الكبيرُ الأيسرُ خارجاً من الحذاءِ، وبَدَأَ الجميعُ بالضَّحكِ، فخجلتُ جدّاً.

وأضافَ:

ـ من الواضحِ أنَّكَ قدِ استعرتَ حذاءكَ من أحدِهم، فلمَ لم تستعرْ جراباً ملائماً أيضاً؟!

ضحكَ الجميعُ.

وبَدَأَتِ المباراةُ، وبالرَّغم من كوننا كُثُر، إلَّا أنَّنا خسرنا، وكَانَتِ النتيجة (4/10)، لَقَدأحرزتُ هدفاً

واحداً، ومحمَّد علي أربعة أهدافٍ، فقَرَّرتُ أن أعملَ حركةً استثنائيَّةً لأنتقمَ من سخريتِهم منِّي، إلَّا أنَّني لم أحرزْ هدفاً.

تمزَّقَ حذائي من الأَمَام أكثر، وظهرتْ أصابعُ قدمي الأربعة. تألَّمتُ كثيراً إلَّا أنَّني لم أظهرْ ذَلِكَ كوني رجلاً، وتابعتُ اللَّعبَ كَأنَّ شيئاً لم يكنْ، وكي لا يغترَّ محمَّد علي كثيراً بنفسِه ذكَّرتُه أنَّ الكرةَ كرتي.

كنَّا نَحنُ الاثنانِ نحبُّ الإجاصَ كثيراً، وفي أَثْناءِ المباراةِ شرحتُ خطَّتنا لأخي الصَّغير عَبْدِ اللهِ. وفورَ انتهاءِ المباراةِ باشرتُ بتنفيذِ الخطَّةِ فهنأتُ محمد علي على فوزِهِ، وعرضتُ عَلَيْهِ الصُّعودَ إلى شجرة الإجاص في حديقَتنا، فخلعتُ حِذائي، وبَدَأت بصعودِ الشَّجرةِ، وهو أيضاً فعلَ ذَلِكَ؛ خلعَ حذاءَه وبَدَأَ بالتَّسلُّقِ، وقفَزنا من فرعٍ إلى آخرَ نقطفُ ثمارَ الإجاص ونأكلها.

في تِلْكَ الأَثْناءِ كَانَ أخي عَبْدُ اللهِ يبحثُ من بينِ الثِّمار المتساقطةِ عن تِلْكَ المتعفِّنةِ منها، فاختارَ ثمرتَين متعفِّنَتَين، ووضعَهما في حذاءِ محمَّد علي الرِّياضيِّ.

نزلنا من الشَّجرة ولَبسنا أحذيَتنا، ومحمَّد علي لازالَ مزهوّاً من النَّصر، في البِدَايَة ظنَّ أنَّ قدمَيه متعرِّقتان من اللَّعب، لعبنا قليلاً بالكرة، وبعدَ أذان المغرب عدنا للمَنزل. ومن الشُّرفة راقبتُ ماذا سيفعل محمَّد علي عِنْدَما يكتشفُ ما فعلنا به.

عِنْدَما خلعَ حذاءَه ودخلَ بجوربيه المتَّسختين داخلَ البيت بعد عدَّة دقائقَ سَمعنا صراخَ الخالة مزيَّن، وبكاءَ محمَّد علي، وقتها أدركت أنني انتقمتُ منه.

تبيَّنَ فيما بعدُ أنَّ محمَّد علي كَانَ قد تجوَّلَ بجوربه كلَّ أنحاء المنزل، واستلقَى على فراشه، وعِنْدَما شمَّت أمُّه رائحةَ جواربهِ المتَّسخة حَصَلَ ما حَصَلَ.

كلُّ شيءٍ كَانَ جميلاً، وأذهَبت بانتقامي هذا سعادته بفوزهِ بالمباراةِ، ولكن في اليوم الثَّالث، وبعدَ خروجنا من الدَّورة جئتُ باكياً إلى البيتِ، وبادرتْ أمِّي بوضعِ قطعةِ الثَّلج على رَأسي على الوَرم الثَّالث الَّذِي أصابَني به محمَّد علي.

# هَلِ انْتَهَى رَمَضَانُ؟

ـ لو كَانَ بيدي لجعلتُ صنَّاعَ الحلوَى يصنعونَ الحَلوى من اللَّحم.

نظرَ للمتحدِّثينَ بعدوانيَّةٍ. كَانَ يُريدُ أن يَقُولَ كلمتَين فقطْ، إلَّا أنَّه لم يَقل شيئاً. كمْ همْ أشخاصٌ جُشعونَ! كَأَنَّهُم يدفعونَ ثمنَ الطَّعام من جيوبِهم ليأكلَ ما يُريدُ، وكَأَنَّهُم هم مَن يدفعونَ له ثمنَ الطَّعامِ؟!

«سمين!» لم يكنْ يكترثُ لما يقالُ له، لكنَّه كَانَ يدركُ أنَّه ممتلئٌ. كما لم يكنْ يُصغي لعباراتِ السُّخريةِ، ولم تعدْ تثيرُ غضبَه، إلَّا أنَّه لم يحتملْ مقارنتَه «بالبقرةِ».

قالَ محدِّثاً نفسَه:

ـ يقولون لي: خالي عَكَّاش إنَّ كثرةَ الأكل إسرافٌ. وهل يصحُّ أن تأكلَ كلَّ هذا الطَّعام لوحدكَ، وهُناكَ الكثيرُ من الفقراءِ في بلدتكَ؟

فيردُّ على نفسه:

ـ وماذا في هذا؟ وهَل أُعتبرُ أنا مبذراً في هَذِهِ النِّعمةِ؟ يحبُّ اللهُ أن يرَى آثارَ نعمته على عَبده!.

عِنْدَما يدخلُ إلى مَكَانٍ كَانَ يدخلُ كرشُه أولاً، ولإخفاءِ كرشهِ كَانَ يرتدِي قميصاً أبيضَ مخطَّطاً بالأزرقِ، والأزرارُ أُغلقتْ بصعوبةٍ وعلى وشك الانفطارِ، أصدقاؤهُ يعرفونهُ وهو قادمٌ مِن بعيدٍ من حجمِ كرشهِ.

لم يكنْ عجولاً أبَداً، من أجلِ عيدِ ميلادِ ابنهِ بقيَ ساعتينِ ليقَرِّرَ أيذهَبُ أمْ لا؟ كَانَ يأكلُ بنَهَم شديدٍ، فعِنْدَما يأكلُ العنبَ يأكلُه دفعةً واحدةً، وبسرعةٍ وكَأنَّ حبَّاتِ العنبِ تُرِيْدُ الهربَ من فمه.

ذاتَ يومٍ قيلَ له:

ـ أيُّها الخالُ عكَّاش، لو تأكلُ العنبَ حبَّةً حبَّةً.

فردَّ عَلَيْهِ:

ـ يا بُنيَّ هَلْ هو إجاصٌ لنأكلَه حبَّةً حبَّةً؟

وبَيْنَمَا هو عائدٌ من صلاةِ المغربِ، كَانَ ينتظرُ الطَّعامَ بفارغِ الصَّبرِ، وكَانَ لا يريحُ بالَه غير الطَّعامِ:

ـ سلوى! أَيْنَ الطَّعام؟ سينامُ النَّاسُ ونَحنُ لازلنا ننتظرُ الطَّعامَ.

ردَّت مُطَمئِنةً زوجَها:

ـ سأحضرُه حالاً.

ـ تقولينَ ذَلِكَ فَقَطْ لإغضابي، لم آكلْ لقمةً واحدةً مُنْذُ عدَّة ساعاتٍ، هيَّا أَسرعي، اكسري بطيخَةً جَانب الطَّعامِ.

ـ كسرتُها ووضعتُها في الثَّلَّاجةِ.

في زاويةِ الغرفةِ كَانَ ابنُه الشَّابُّ محمودٌ يصنعُ المسابحَ من بذورِ الزَّيتونِ، وهو مرهقٌ للغايةِ، ويبدو عَلَيْهِ التَّعبُ الشَّديدُ.

قال الأبُ لولدِهِ:

ـ ما رأيُكَ ألَّا نزرعَ القمحَ هَذِهِ السَّنة؟

ـ هَلْ تكلِّمُني يا أبي؟

ـ لا، أنا أكلِّمُ الحمارَ الَّذِي في الحظيرةِ!؟

ـ لا تغضبْ يا والدي، لم أكنْ أفهمُ ما تقصدُ؟

ـ ليسَ لديكَ عقلٌ لتفهمَ أصلاً، لو كَانَ لديكَ ذرَّة عقلٍ

كنتَ درستَ، وأصبحتَ شخصاً نافعاً، إن لم تدرسْ لن تتعلَّمَ الكلامَ.

ـ لا أحبُّ الدِّراسةَ، مستوايَ ضعيفٌ.

ـ مستواكَ؟ المهمُّ: ما رأيُكَ ألَّا نزرعَ القمحَ السَّنة القادمة؟

ـ لماذا يا أبي؟

ـ لأنَّ القمحَ لا يدرُّ الرِّبحَ.

ـ ماذا نزرعُ إذاً؟

ـ أنتَ تعلم أنَّني أحبُّ البطيخَ، ولْيمتلئِ الحقلُ بالبِّطيخِ الأصفرِ الكبيرِ.

كَانَ من طبعِ محمودٍ إنْ لم يقتنعْ بفكرةٍ ما يقلبُ شفتيهِ ويبَدَأُ بحكِّ رأسه. وشردَ بأخشاب السَّقف وبعد مدَّةٍ قصيرةٍ قال:

ـ الآنَ تحبُّ البطيخَ، يجبُ علينا أنْ نزرعَه؟

ـ السَّنة الماضية زرعَ جارُنا البطيخَ، وربحَ مالاً كثيراً، ويَقُولونَ أنَّه سدَّدَ ثمنَ الجرَّارِ من المحصولِ، وتجمَّع التُّجار على بابهِ لشراءِ المحصولِ، بَيْنَمَا نَحنُ نذهَب،

ونتوسلُ التُّجارَ لأخذِ محصولِنا، وهم يتعفَّفونَ مثل العروسِ، ولا يعطونَنا حقَّنا.

هزَّ محمودٌ رأسَه يمنةً ويسرةً، ولم يكنْ مقتنعاً بما قالَه والده، فَقَالَ:

ـ دَعْنا لا نكترث بما يفعلُه الآخرونَ، ولنتابعْ زراعةَ القمحِ.

ـ لماذا تفكِّر بهَذِهِ الطَّريقةِ؟

ـ العملُ في الحقلِ صعبٌ جدّاً، ولا أسْتَطِيعُ العملَ بمفردي، ولا أدري إن كنَّا نسْتَطِيعُ دفعَ ما يترتَّب عَلينا من نقودٍ هَذِهِ السَّنة.

ـ لاتدعْ أحداً يسمعُ هذا.

ـ لكنَّ الحقلَ يحتاجُ لعملٍ جادٍّ وبذارٍ. وبالنسبة لك الشَّيء السَّهل تتكفَّلُ به، والشَّيء الصَّعب تَرميه عليَّ.

ـ سوفَ نفكِّرُ في حلٍّ.

ـ حسناً، إذا بذَرنا من سَيَسقي الزَّرعَ؟

ـ لن أسقيَه وكرشي في هَذِهِ الحالةِ أكيد، أنتَ سَتَسقي.

ـ كلُّ العملِ تُلقيهِ على كاهِلي، لمَ لا تكلِّفُ آدمَ بشيءٍ ما؟

ـ أخوكَ لا يسْتَطِيعُ العملَ.

ـ لماذا لا يسْتَطِيعُ؟

ـ لأنَّه يدرسُ، أنتَ ستعملُ في الحقلِ، وهو سيدرسُ في كتابِه. لَقَد قلتُ لكَ ادرسْ، لكنَّكَ لم توافقْ، لا تمنعْ أخاكَ من القراءةِ.

ـ أنتَ تقولُ إنَّه يدرسُ، ولكنَّه من ستِّ سنينَ، وهو لايزالُ في المدرسةِ الإعداديَّة، وأنا أزرعُ وأزرعُ.

ـ لا علاقةَ لكَ بهذا، أخوكَ يناضل بالدِّراسةِ، كلّ يومٍ يذهَبُ إلى المدرسةِ في الحيِّ المجاورِ بكتبهِ ودفاترهِ، ليسَ مثلكَ.

ـ وأنا، ألا أعملُ؟ لَن أسقيَ الزَّرعَ.

ـ ما معنى أنَّك لَن تسقيَ الزَّرعَ؟

ـ إنكَ تشغِّلني في كلِّ الأعمالِ، حتَّى الثَّور في الحظيرةِ لا يقومُ بجميعِ الأعمالِ، بَيْنَمَا أنا أقومُ بكلِّ الأعمالِ.

ـ محمود... لا تفقدْني صَبري. هيَّا اذْهَبْ واسقِ الزَّرعَ.

ـ أقسمُ باللهِ أنَّني لن أَسقيَ الزَّرعَ، ليسقِها آدمُ.

عندها قالتْ زوجةُ الخالِ عكاش:

ـ لماذا تستبقونَ الأمورَ؟ تتجادَلونَ في المحصولِ الَّذِي سيأتي هَذِهِ السَّنة، وكَأَنَّكُم قد بذرتُم، وجَاءَ وقتُ السِّقايةِ!.

ـ لا تَتدخَّلي أنتِ.

عندَها فرَّ محمودٌ طابقاً البابَ خلفَه بشدَّةٍ، صاح الخال عكّاش:

ـ إذا لم أُدفِّعْكَ جزاءَ ذَلِكَ لَن أكونَ رَجلاً.

جنَّ جنونُ الخالِ عكاش من الغضبِ، لكنَّ بنيتَه الضَّخمةَ وكرشَه أعاقاه عن مطارَدة محمودٍ.

إلَّا أنَّ رائحةَ الطَّعام الزَّكيَّة خفَّفتْ من حدَّة غضبهِ. وكَانَ تأثيرُ رائحةِ «المانتي» و«اللَّبَن بالثُّوم» الَّتِي انتشرتْ في أنحاءِ الغرفةِ كبيراً على الخالِ عكّاش، الَّذِي نفذَ صبرهُ من الجوعِ، حَيْثُ كَانَ يحبُّ صنفَ الطَّعامِ هذا كثيراً، وكَانَ يتوق لوضعِ «المانتي» في طبقهِ، ومن ثمَّ يغطيهِ باللَّبنِ والثُّومِ، ويزيِّنُ وجهَه بالنَّعناعِ والسّماقِ.

كادَ أن يفقدَ أعصابَه لحين ترتيبِ مائدةِ الطَّعامِ، كما انتشرتْ رائحةُ اللَّحمِ الشَّهيَّةِ والرُّزِّ والبرغلِ في أرجَاءِ الغرفةِ.

وبعدَ انتهائِه من تناولِ ثلاثةِ أطباقٍ من «المانتي»، بَدَأَ بتناولِ الرُّز، غمرتهُ السَّعادةُ، ونسيَ تماماً ما حدثَ قبلَ قليلٍ، صاحَ قائلاً:

ـ سلوى! نادِي على الأولادِ كي يأتوا لتناولِ الطَّعامِ.

مدَّتْ سلوى رأسَها من النَّافذةِ الخشبيَّةِ ونادت:

ـ محمود!

كَانَ أحمدُ في غرفتهِ، ينظرُ بحسرةٍ إلى الكتابِ لساعاتٍ طويلةٍ، وليخفِّف من حدَّة الغضب في المنزلِ نزلَ إلى ساحةِ القريةِ، وبَدَأَ يسألُ نفسَه عن سببِ عدمِ تمكُّنهِ من إنهاءِ الدِّراسةِ في المدرسةِ ذاتِ الثَّلاثِ سنواتٍ إلى الآنَ.

منَ المأكولاتِ التِي يفضِّلُها الخال عكّاش حساءُ اللَّحم مَعَ الرُّز، إلَّا أنَّه مستحيلٌ أن يتناولَ «الشُّوربةَ» الَّتِي لم يضَفْ إليها مَرَقَ لحم الدَّجاجِ.

والطَّعام الَّذِي لا يُوجَدُ بدَاخلهِ لحمٌ لا يحبُّه، ولا يحتاجُ أن يَقُولَ هذا لزوجتهِ، فهيَ تعرفُ هذا جيِّداً.

ذاتَ يَومٍ ذَهَبَ الخالُ عكّاش إلى المدينةِ، وظنَّت

زوجتُه أنه لن يعودَ فصنَعتْ «مُسقَّعة الكوسا» بدونِ لحمٍ، وعِنْدَما عادَ غضبَ كثيراً، وأخذ يردِّد مزمجراً:

ـ لماذا طبختِ هذا الطَّعام يا امرأة؟

لم تنبسْ زوجتُه ببنتِ شفةٍ، وتمالكتْ نفسَها، ولكنَّها في النِّهاية انفجرتْ قائلةً:

ـ لا يُوجَدُ غيرُ هذا الطَّعامِ. إن أردتَ أن تأكلَ، وإن لم ترِدْ فالبابُ مفتوحٌ.

الخالُ عكَّاش عادةً عِنْدَما تغضبُ زوجتُه يصمتُ، ويصبحُ كالقطِّ الهادئِ، وينسحبُ إلى مَكَانه المعتادِ إلى جانبِ المدفأةِ.

ـ زوجَتي العزيزةَ! لماذا غضبتِ، أليستِ الكوسا نعمة؟! مَن قالَ غيرَ هذا؟ أكيد سنأكلُ، يكفي أنْ تحضِري لنا بصلاً أخضرَ بجانبه.

يُوجَدُ جامعٌ في القريةِ، ولكن مُنْذُ القديمِ لم تتغيَّرْ عاداتُهم في الذَّهابِ إلى المدينةِ. بَيْنَمَا تبقَى النِّساء في القريةِ يوم الجمعةِ، وهنَّ سعيداتٌ ببقائهنَّ في القريةِ.

وطبعاً الخال عكّاش من المؤكَّد أنَّه يكونُ ضيفاً

لأحدِهم هُناكَ، وهو القصابُ، ومن المستحيلِ أن يفوِّتَ ذَلِكَ. وتكونُ سعادتُه لا توصفُ مَعَ وجباتِ اللَّحمِ اللَّذيذةِ.

ـ آهٍ يا صديق! اللَّحمُ الَّذِي أخذتُه الأُسْبُوعَ الماضي لم يكنْ لحماً، بل كَانَ راحةً، واللهِ راحةٌ (الرَّاحة: نوعٌ من الحَلوى الشَّعبيَّةِ).

ـ واللهِ هذا خصِّيصاً لكَ ياسيِّدي. الأُسْبُوعُ الماضي كَانَ عِنْدِي لحمُ عجلٍ، كَأَنَّهُ بقلاوةٌ، قطايف، شيءٌ لا يصدَّقُ، طريٌّ ولذيذٌ.

ـ آهٍ منك يارفيقي! لماذا لم تعطِني منه؟

ـ ألمْ تقلْ لي أنك تريد لحمَ خروفٍ؟ لا تقلقْ، هذا الأُسْبُوعُ اللَّحمُ الموجودُ أفضلُ من القديمِ. سأعطيكَ (5) كيلو منه، وإذا تذوَّقتَه ستضربُ رأسَكَ بالحائطِ، وتقولُ لمَ لمْ آخذ (10) كيلو؟

ـ بَدَأتُ أخافُ منكَ يا رفيقي. ضعْ لي من هذا اللَّحم لنرَى.

في العادةِ بعدَ كلِّ طعامٍ، وقبلَ تناول الحَلوَى، يحبُّ أن يشربَ كأساً من اللَّبنِ، في ذَلِكَ اليوم لم تصنعْ زوجتهُ

اللَّبنَ، وقامت القيامةُ، وبَدَأَ صوتُ الخال يزمجرُ، وسمعت كلُّ القريةِ صوتَه.

في رمضان يتغيَّر حالُه، لا يفارقُ الجامعَ، ولكنَّ الصِّيامَ صعبٌ قليلاً عَلَيْهِ، لا، ويستمرُّ بشرح ما سيأكلهُ عندَ الإفطارِ طوالَ فترةِ عملهِ في الحقلِ، وكلَّما يُسهِبُ في الشَّرحِ يزدادُ شوقُه للطَّعامِ، ولم يحلَّ الظُّهرُ بعدُ، ويبدَأ يشكو من الجوعِ، ومع ذَلِكَ يستمرُّ بالحديثِ عن الطَّعام. وفي نهايةِ كلِّ يومٍ يتأسَّفُ على رمضان بقوله:

ـ إيه يا رمضان، انتهيتَ ياشهرَنا المبارَك.

في تِلْكَ السَّنةِ جَاءَ رمضانُ في شهرِ تمُّوز، وكَانَتِ القريةُ وكَأَنَّها تَغلي من شدَّةِ الحرِّ. وكَانَ العملُ في الحقلِ صعباً جدّاً، وكَانَ موعدُ الإفطارِ بعدَ السَّاعة الثَّامنة، كَانَتْ ساعاتُ اللَّيل تمرُّ بسرعةٍ، فكَانَ خِلالَ الصَّومِ يجوعُ ويعطشُ. ومِن شدَّةِ العطشِ كَانَ يرى سراباً، ولو كَانَ يغلقُ فمَه قليلاً لما عطشَ إلى ذَلِكَ الحدِّ.

كَانَ يتراءَى له نهرٌ وسفينةٌ ذاتُ شراعٍ فيردِّدُ قائلاً:

ـ إيه! الدُّنيا عبارةٌ عنِ امتحانٍ لابدَّ من الصَّبرِ.

كَانَ قدْ عاهدَ نفسَه ألَّا يتناولَ الكثيرَ من الطَّعام علَى السّحور، ويكرِّر العهدَ على نفسه دونَ تطبيق، ويَقُول لزَوجته:

ـ آآآه يا سلوى! كلُّه بِسَببِكِ.

تركتْ زوجتُه الفأسَ من يدِها، وقالت لزوجها:

ـ من جديدٍ يا زوجي العزيز؟!

ـ ماذا سيحدثُ، لَقَد أطعمتِني «سجقاً وبسطرمة»، انظري إلى حالي الآنَ، سأموتُ من العطشِ.

ـ الله الله.. كَأنَّني أطعمتُك بالغصبِ، كَأنَّني أنا مَن قالَ لكَ كُلْ، دائماً أقولُ لكَ: دعنا نتسحَّر سحوراً خفيفاً، ولكنَّكَ تصرُّ دوماً على أكلِ «البسطرمة والسُّجق».

النَّاسُ تشتري بالنُّقودِ الَّتِي تكسِبُها أراضٍ وجرَّاراتٍ، بَيْنَمَا نَحنُ نصرفُ النُّقودَ في الطَّعامِ.

ـ يكفي، لا تُطيلي الكلامَ، معكِ ذنبٌ واللهِ، لساني يكادُ يلتصقُ بسقفِ حلقي من العطشِ، وأنا لا أسْتَطِيعُ مجاراتكِ بالكلامِ، أنا صائمٌ يا امرأة، اتركيني وشَأني.

ـ كَأنَّكَ الصَّائمُ الوحيدُ!.

هذا الصَّيفُ وبِسَببِ الطَّعامِ، كَانَ الخالُ عكَّاش يتكلَّم كثيراً عن المشروباتِ، وخاصَّةً العيران، وكلَّما تكلَّم عن العصائرِ والكرزِ والعيرانِ زادَ عطشُه. وعِنْدَما يزدادُ عطشُه كَانَ يبدَأُ بالكلامِ عن الماءِ الباردِ، وكيفَ أنَّه فورَ عودته للبيتِ سيعدُّ لنفسهِ كوباً من عصيرِ «اللَّيموناضة» الباردِ.

واستمرَّتِ الأيَّامُ على هذا المنوالِ، واقتربَ رمضانُ من نهايتِهِ، وكَانَ يكرِّرُ عبارتَه المشهورةَ ككلِّ سنةٍ:

ـ إيه يا رمضان، ستذهَبُ كما أتيتَ ككلِّ سنةٍ.

في هَذِهِ المرَّةِ كَانَ شبابُ القريةِ يخطِّطونَ لمقلبٍ سيفعلونَه بالخالِ عكَّاش في المَقهَى.

بعدَ الإفطارِ يذهَبُ الجميعُ إلى صلاةِ التَّراويحِ، وكما جرتِ العادةُ يكونُ قميصُه متَّسخاً بآثارِ الطَّعامِ، وفي ذَلِكَ اليومِ كَانَتْ هُناكَ بقعةُ دسمٍ حمراءُ غامقةٌ على قميصهِ، تدلُّ على أنَّه تناولَ الكُفتةَ.

وبصوتٍ عالٍ قالَ لأصحابهِ في المَقهَى:

ـ السَّلامُ عليكم.

ردُّوا عَلَيْهِ:

ـ وعليكمُ السَّلام.

وككلِّ مرَّةٍ يصدرُ صوتاً من الكرسيِّ الَّذِي يجلسُ عَلَيْهِ، وكَأَنَّهُ يئنُّ من الألمِ، ويَقُولُ لأصحابهِ:

ـ نشربُ الشَّايَ، أليسَ كذَلِكَ؟

وينادي لصبيِّ القهوةِ:

ـ حيدر! أحضرْ ثلاثَ كؤوسٍ من الشَّاي المخمَّر إلى هنا.

وككلِّ سنةٍ وكالعادةِ قبلَ أن يأتيَ الشَّاي يَقُولُ عبارتَه المعتادة:

ـ إيه يا شهر رمضان! مثلَما أتيتَ ستذهَبُ.

ردَّ عَلَيْهِ أحدُ الشَّبابِ في المقهى:

ـ لا تقلقْ، سينتهي رمضانُ هذا الشَّهر بسرعةٍ.

نظرَ بدهشةٍ إلى جهةِ الصَّوتِ، وحاولَ أن يفهمَ ماذا يقصدُ قائلاً:

ـ ماذا تقولُ يا بنيَّ؟ مَازالَ هُناكَ الكثير من الأيَّامِ لينتهيَ رمضان.

ثم تساءلَ الخالُ عكّاش:

ـ ماذا تقصد بقولك هذا؟

هَذِهِ المرَّة ومن طرفٍ آخرَ قاطعَ أحدُهم قائلاً:

ـ أيُّها الخالُ عكّاش: هَذِهِ المرَّةُ أخطأُنا في الحسابِ، لذَلِكَ سنصومُ خمسة عشرَ يوماً إضافيَّةً.

وأصابتِ الخالَ عكَّاش صدمةٌ، وتجمَّدَ بمَكَانِهِ، وجحظتْ عيناهُ، واحمرَّتْ أذناهُ من الغضبِ، واحمرَّتْ أطرافُ أصابعهِ، وشعرَ كَأنَّ ماءً ساخناً قد صبَّ فوقَ رأسِهِ، وقامَ قائلاً بغضبٍ:

ـ وما شَأني أنا بهذَا؟ كَانَ منَ المفروضِ أن يحسبوا بشكلٍ جيِّدٍ. لَقَد صمتُ شهراً كاملاً، وليصمِ المفتي ما تبقَّى.

قالَ ذَلِكَ وهو خارج إلى منزله.

# هَل قَلبتَ حلوَى «الرِّيواني»؟

ـ هيَّا استيقظوا حانَ موعدُ السُّحورِ.

في سكنٍ للطَّلَّاب، المشرفُ المناوبُ يوقظُ أصدقاءَه للسُّحور، مادّاً رأسَه من البابِ منادياً أصدقاءَه:

ـ هيَّا.. هيَّا إلى السُّحورِ، المؤذنُ وضعَ يدَه على أذنيه، وسيؤذنُ الفجر، وستبقونَ بلا سُحورٍ.

بعيونٍ نصفِ مفتوحةٍ جلسَ الجميع إلى الطَّاولة، وإبريقُ الشَّاي المليءُ في مَكَانهِ المعتادِ على الطَّاولةِ، وكَأَنَّهُ يحاولُ أن يُذهِبَ بسخونةِ بخارهِ برودةَ غربةِ هَؤُلاءِ الطُّلابِ.

كَانَ السُّحورُ عبارةً عن صينيةٍ كبيرةٍ، وُضعَ عَلَيْهِا صحنٌ من الجبن، وصحنٌ من الزَّيتونِ، وصحنُ بطاطا مَعَ البيضِ. ويُوجَدُ أيضاً قطعُ الخبزِ اليابسِ، الَّذِي يؤخذُ من الفرنِ بنصفِ السِّعرِ.

صحن الزَّيتون مثلَما يوضعُ على الطَّاولةِ يعودُ، لا أحدَ يمدُّ يدَه إليه، وهنا سألَ أحدُهم المشرفَ المناوبَ:

ـ هذا الزَّيتونُ، لا أحدَ يأكلهُ، لماذا تصرُّون على وضعهِ على الطَّاولةِ؟

ـ انظروا لهذا السُّؤال في هذا الوقتِ من اللَّيلِ! وهل كلُّ شيءٍ موضوعٌ على الطَّاولةِ يؤكلُ؟

ـ ماذا تعني بذَلِكَ؟

ـ في المطعمِ هُناكَ ورودٌ توضعُ على الطَّاولةِ، هَلْ تأكلونَها؟ لماذا؟ لأنَّها للزِّينةِ وزيتونُنا كذَلِكَ، لتزيينِ السُّحورِ، وبدونِه لا تكتملُ الطَّاولةُ.

ضحكَ الجميع بصوتٍ عالٍ، السُّفرة فقيرةٌ والطَّعامُ قليلٌ، ولكنَّ القلوبَ المليئةَ بالمحبَّة والصَّداقة تكون غنيَّةً.

سألَ أحدُ الطُّلابِ الَّذِين يدرسون في كليَّة الحقوقِ في السَّنة الأولى طالباً في السَّنةِ الثَّانيةِ.

ـ يا سيادةَ القاضي: نَحنُ نهتمُّ بالجبنِ كثيراً، ولا ننظرُ حتَّى إلى الزَّيتونِ، ما هي عقوبتُنا؟

ـ حسبَ القانونِ التُّركي/ المادة 122: تصرُّفك هذا يدخلكَ تحتَ بند التَّفرقةِ العنصريَّة.

ـ لاااا، ليسَ إلى هذا الحدِّ!.

ـ نَحنُ نأكلُ الجبنَ لأنَّه أبيضُ، ولا نأكلُ الزَّيتونَ لأنَّه زنجيٌّ، وأنتم تعرفونَ جريمةَ التَّفرقةِ العنصريَّة.

أَثْناءَ ذَلِكَ لا يتوقَّفُ المناوبُ عن ملءِ كؤوسِ الشَّاي فورَ فراغِها، كلُّ واحدٍ ينتظرُ أنْ يُملأَ كأسُه مرَّةً ثانيةً وثالثةً. والَّذِي ينهي كأسَه يفرغُ ثمالة «تفل» الشَّاي بكأسٍ فارغٍ.

بَيْنَمَا يجتمعُ كلُّ الطُّلاب على الطَّاولة، الشَّاب محمَّد لايزالُ نائماً، ويتكلَّمُ أَثْناءَ نومِه، محمَّد يدرسُ في كليَّةِ الآدابِ قسمِ التَّاريخِ، فتراهُ يتكلَّم عن القسم الَّذِي لم ينجحْ به، قسْم التَّاريخ العُثماني متمتماً:

ـ أيُّها الأميرُ، أيُّها المحترمُ، احترام..

رغمَ محاولاتِ المناوبِ للمرَّةِ الخامسةِ لإيقاظهِ قائلاً:

ـ هيَّا يا شباب، الجميعُ إلى الطَّعامِ.

يستمرُّ في الكلامِ بكلماتٍ غيرِ مفهومةٍ، وأخيراً كَانَ محمدٌ قد استيقظَ، محاولاً سحبَ جسده السَّمينِ من

الفراشِ، وكَأَنَّهُ مربوطٌ إلى الفراشِ بالحبالِ، لا يسْتَطِيعُ النُّهوضَ.

فجأةً انزلقَ من الفراشِ، وسقطَ على الأرضِ محدِثاً ضجَّةً عاليةً، موقظاً كلَّ الجيرانِ في الطَّابقِ الأسفلِ. فركَ عينَيه، ثمَّ قامَ وغسلَ وجهَه، وجلسَ إلى الطَّاولةِ، وهو نَعِسٌ، ومدَّ يدَه إلى كأسِ الشَّاي وأفرغَها في جوفِه دفعةً واحدةً قائلاً وهو يتذمَّرُ:

ـ أووه، الشَّاي باردٌ جدّاً، وأيضاً حلاوتُه زائدةٌ.

انفجرَ الشَّباب بالضَّحك، لأنَّ محمَّداً شربَ الكأسَ الَّتِي فيها بقايا «تفلِ» الشَّاي. وتركوا التَّعليقَ على هذا إلى الصَّباحِ، وأخذَ المشرفُ المناوبُ الكأسَ، وذَهَبَ بها إلى المطبخِ، وعادَ بكأسينِ ملأَ أحدَهما لمحمَّدٍ. عِنْدَما نظرَ محمَّدٌ إلى الطَّاولة تساءلَ قائلاً:

ـ أَيْنَ الطَّعامُ؟

قال المناوبُ:

ـ ألا ترَى أنَّه يُوجَدُ أنواعٌ كثيرةٌ من الطَّعامِ؟ جبنٌ وزيتونٌ وخبزٌ وشايٌ و.. و..

ـ طبعاً طبعاً، وملاعقُ وكؤوس وسكاكين و.. و..

في ذَلِكَ المساءِ شعروا بالرَّاحةِ قليلاً، لأنَّ مهندساً دعاهُم إلى طعامِ الإفطارِ. ولقد خفَّف هذا عنهمُ الحرمانَ الَّذِي شعروا به في السُّحورِ.

أحدُ الطُّلاب استدارَ إلى محمَّد قائلاً:

ـ أنا أعرفُ طريقةَ صنعِ حلوى «الرّيواني»، ما رأيك أن أصنعَه غداً؟

ـ هَلْ أنتَ جادٌّ في قولكَ؟

ـ طبعاً.

ـ حسناً، غداً قبلَ ذهابنا إلى الدَّرس نصنَع الحلوَى، وبعدَ عودَتنا نَأكله، نَضع عَلَيْهِ كثيراً من القَطر، أووه.. سَيكون لذيذاً جدّاً.

استَيقَظوا باكراً في اليوم التَّالي، كلُّ شيءٍ كَانَ جاهزاً: الطَّحين، البيض، السَّميد، السُّكر، وبعد صنعهِ وضعوهُ في الفرنِ.

المشكلةُ أنَّ الفرنَ لا يعملُ بشكلٍ جيِّدٍ، فَقَط الطَّرف الأيمن.

ـ عليكم أن تدوِّرا صينيَّة الحلوى كلَّ فترةٍ حتَّى تنضجَ كلُّ أطرافها، وإلَّا سينضجُ فَقَط الطَّرفُ الأيمنُ.

وَضعوا الصِّينيةَ في الفرنِ.

قالَ محمَّد:

ـ واللهِ حتَّى هذا العجين يبدو لذيذاً حتَّى قبلَ أن ينضجَ.

ـ معكَ حقٌّ، انتظرْ حتَّى تنضجَ، وأنا بعدَ عودَتي سأسكبُ عَلَيْها القطرَ، وسَنَأكلها عِنْدَما نعودُ من الإفطارِ.

ـ سَنُعطيهَا حقَّها عندَ عودَتنا.

ـ ولكن أنا أفكِّر: من سيديرها؟ أنا دَرسي بعد (11) دقيقة!

ـ وأنا أيضاً دَرسي بعدَ قليلٍ، ولكن عدنان قالَ إنَّه سَيعود مبكراً، سنقولُ له عندَ عَودته.

ـ بَيْنَمَا تحمَّر الحلوى ما رأيُك أنْ نحضرَ أنفسَنا للخروج؟ ها قد وصلَ عدنان.

ـ أهلاً وسهلاً عدنان.

ـ أهلاً بكم.

ـ عدنان! نَحنُ الآنَ ذاهبون إلى الدَّرس، يُوجَدُ حَلوَى

في الفرن، ونريدُ منكَ أن تديرَ الصّينيّة كلَّ فترةٍ حتَّى تنضجَ جيِّداً.

ـ تمام.

ـ أَرْجوكَ يا عدنان، انتبهْ جيِّداً، لا نريدُ أن نخسرَها فمُنْذُ الصَّباح ونَحنُ نَصنَعها.

ـ تماماً تماماً، لا تَقلَقوا عَلَيْها.

وتَركوا الحَلوَى أمانةً بينَ يديّ عدنان، ولكنَّ محمَّداً طوالَ الدَّرس وهو يفكِّر بالحَلوَى، وانتبهَ لأوَّل مرَّةٍ كَم أنَّ مقاعدَ الجامعَة لونها يشبه لونَ حلوَى «الرّواني». وأَثْناءَ شرحِ الأُسْتاذِ للدَّرس فكَّرَ محمَّد كَم أنَّ الخريطةَ الَّتِي يريهم إيَّاها الأُسْتاذ تشبه الحلوى.

وانتبه إليه الأُسْتاذُ أنَّه شاردُ الذِّهن، وقالَ له:

ـ أعتقدُ أنَّ عقلَك ليسَ معَنا في الدَّرس.

انتبهَ إلى نفسه، وحاولَ التَّركيزَ في الدَّرس قائلاً:

ـ أستغفرُ اللهَ يا أُسْتاذُ، أنا أستمعُ إليكم.

ـ حسناً، إذاً في أيِّ حملةٍ كَانَ أوَّل انتصارٍ للقائد مراد على إيران؟

ـ في حملة رواني يا أُسْتاذ.

ولم يكن أحدٌ يتوقَّع هذا الجواب، فانفَجَرنا بالضَّحكِ.

وعادةً كَانَ درسُنا ينتهي بعدَ العصرِ، وكَانَ يحلمُ بالحلوى، ودعوة الإفطارِ، ممَّا جعلَ السَّاعات تمرُّ ببطءٍ شديدٍ، وكَانَ هُناكَ مسجدٌ صغيرٌ على جانبِ الطَّريقِ. صلَّى العصرَ فيه ثمَّ توجَّه إلى البيتِ، واستطاعَ التَّغلُّبَ على برودة الجو والطَّريق المليءِ بالثُّلوج، بتفكيرِه بالحلوى.

وأخيراً وصلَ إلى البيتِ، وعِنْدَما فتحَ البابَ، وإذا بالرَّائحةِ تملأ المكَانَ، فأخذَ نفساً عميقاً، ولاحظَ أنَّ الموجودينَ في المكَان مضطربون، فاستغربَ وقالَ لهم:

ـ ماذا حدثَ لكم؟ وكَانَت سفننا قد غرقَت جميعها في البحرِ.

ـ «الرّواني» يا صَديقي.

ـ أعرفُ أعرفُ، سنأخذُها بعدَ الإفطارِ إنْ شَاءَ اللهُ، هيَّا لنجهِّزَ أنفسَنا للذَّهاب لئلَّا نتأخرَ، آه.. تذكَّرت: هل نضجتِ الحَلوَى جيِّداً؟

ـ أفضِّلُ أن تَرَى بنفسكَ يا صديقي.

وكَأَنَّهُ فهمَ من لَهجته أنَّ هُناكَ شيئاً سيئاً قد حَصَلَ، فذَهَبَ إلى المطبخِ بسرعةٍ، ولم يصدِّقْ عينيهِ. كَيفَ تحوَّلتْ صينيّةُ الحلوى إلى هذا الشَّكل؟ شيءٌ لا يصدَّق، ولم يفهمْ ما حدثَ.

لَقَد كَانَت صينيّةُ الريفان بأفضل حالٍ عندَ إدخالِها للفرنِ، والآنَ تبدو بشكلٍ لا يوصفُ من الفَوضَى، فقدِ اختلطَ معَها الشَّعر والنِّفاياتُ وقطعُ الجرائدِ، كلُّ شيءٍ موجودٌ داخل الصّينيّةِ، وكَأنَّ يداً مجهولةً قلبتْ حاويةً من النِّفاياتِ فوقَ الصّينيّةِ.

انصدمَ محمَّد من المنظرِ، وكادَ أن ينسَى أنَّه كَانَ صائماً حينَها، فاستعادَ وعيَه وحاولَ تهدئةَ نفسه.

ـ أينَ عدنان هذا؟

وفورَ دخولِ عدنان إلى المطبخِ بَدَأَ بالشَّرح:

ـ كَم هو صعب عملية قلبِ صينيَّةِ الريفانا، لَقَد فَنينا من التَّعب.

ـ ماذا فعلتَ بحلوى الريفانا؟

ـ قلبتُ الصّينيّةَ.

ـ كَيفَ قلبتَها؟ حسب عِلمي كَانَ يجبُ أن تمسكَ الصّينيّةَ من إحدَى أَطرافها وتديرَها. ماذا فعلتَ أنتَ؟

ـ كَانَ عليكَ من البِدَايَة أن تقولَ لي أنَّه عليَّ أن أديرَ صينيّةَ الحلوى، لَقَد ظننتُ بقولكَ: «عليكَ أن تديرَ الصّينيّةَ» أن أجعلَ السَّطحَ العلويَّ منها في الأسفل، لماذا لم تشرحوا بشكلٍ واضحٍ؟ لَقَد بقيتُ ساعةً كاملةً، وأنا أحاولُ قلبَ الصّينيّةِ، وأحرقتُ يديَّ أيضاً.

احمرَّ وجهُ محمَّدٍ وأذناهُ من الغضبِ، أمسكَ نفسَه بصعوبةٍ، بَيْنَمَا يتحدَّث عدنانُ بكلِّ رُويَّةٍ وبرودةِ أعصابٍ، وكَأَنَّهُ السكونُ قبلَ العاصفةِ، ثمَّ قالَ وهو يمسكُ نفسَه بصعوبةٍ:

ـ ثمَّ ماذا حَصَلَ عدنان؟

ـ لَقَد أخرجتُ الصّينيّة من الفرنِ، وقمتُ بتغطيتها من الأعلى بأوراقٍ من الجرائدِ، وكلُّ شيءٍ قد حدثَ بغضونِ ثوانٍ، لم تكن قد نضجتْ تماماً فعلقَ قسمٌ من الريفانا داخلَ الصّينيَّة، ففكَّرتُ أنْ أعيدَ قلبَها إلى داخل الصّينيّة، ولكن كَانَتِ الجريدةُ قد تبلَّلت من البخارِ، فوقعتِ العجينةُ

على الأرضِ، فأعدتها بالملعقةِ إلى الصّينيّةِ من جديدٍ، لكن على الرَّغمِ من حالِتها هَذِهِ، وآثار الشَّعرِ وقصاصات الجرائدِ إلّا أنّها لا يزالُ مذاقها لذيذٌ.

كادَ محمّدٌ أن ينفجرَ من الغضبِ، فزمجرَ قائلاً:

ـ تعالَ إلى هُنا.

وانكمشَ عدنانُ من شدَّةِ خوفهِ من صوتِ صياح محمد، وفرَّ بعيداً بَيْنَمَا أمسكَ الأصدقاءُ محمَّداً قائلين:

ـ أَرْجوكَ إنَّه رمضان، لا تدعِ الشّيطانَ يتحكَّم بكَ، صديقُنا عدنان أخطأَ في الفهمِ، سامحه.

ـ إنَّ انتظارَ عملٍ نافعٍ من هذا الشَّخص كمن ينتظرُ الدُّموعَ من عيونِ الأعْمى.

ـ اليوم سَنتناولُ الإفطارَ في الخارجِ، بالتَّأكيدِ يُوجَدُ طبقٌ من حَلوَى الريفانا.

عندَها هدأَ محمَّد، وقالَ لنفسه: «نعم صحيح، سنفطرُ في الخارج اليوم».

ثم قَالَ في نفسِه: «مهما تحدَّثت مَعَ الأصمِّ فلن يفهمَكَ، وهذا ينطبقُ على عدنان، ولكن يا حسرةً على

الموادِّ والكهرباءِ والجهدِ المبذولِ الَّذِي ذَهَبَ سُدى في تحضيرِ الحَلوى».

وعندَ حلولِ المساءِ ذَهَبوا إلى الإفطارِ، وابتعد محمَّدٌ عن عدنان أَثْناءَ المشي، وحتَّى عندَ صعودِهم إلى الباصِ ابتعدَ عدنان إلى زاويةِ الباصِ كي يبقَى بعيداً عن محمَّدٍ، وعِنْدَما وصَلوا إلى المنزل تلاقتْ أعينُ محمدٍ وعدنان، فقرعَ عدنان الجرسَ، وعقدَ حاجبَيه، وكَأَنَّهُ يَقُول لمحمدٍ سأريكَ، وعِنْدَما فتحَ البابَ عادَ عدنان إلى حالَته السَّابقة، وارتسمتْ على وجههِ ابتسامةٌ خفيفةٌ.

رحَّبَ صاحبُ المنزل بالشَّبابِ بوجهٍ بشوشٍ قائلاً:

ـ أهلاً وسهلاً.

عندَها فاحتْ رائحةُ الطَّعامِ الزَّكيةِ من الدَّاخلِ، وقالَ الشَّبابُ:

ـ أهلاً بكَ.

وهمُّوا بالدُّخولِ، وجلسوا في صدرِ المجلسِ. وقبل الأذانِ التفُّوا حول مأدبةِ الطَّعام. كَانَتِ الطّاولةُ مليئةً بشتَّى أنواعِ الطَّعامِ لدرجةِ أنَّه لم يكن هُناكَ مكَان فارغٌ على

الطَّاولةِ: حساء اللَّبنِ، الرّز بالسَّمنِ، كفتة، يبرق، البرك، حلوى الكولاج.

كَانَ محمَّدٌ ينتظرُ الأذانَ بفارغِ الصَّبرِ كي ينقضَّ على الطَّعامِ، كَانَ دخان «الشُّوربة» يدغدغُ محمَّداً، بالإضافةِ إلى رائحةِ أصنافِ الطَّعامِ المتنوِّعةِ: الرّز بالسَّمنِ، والنَّعناعِ المرشوش فوقَ سلطةِ الجقجيق، وصلتْ إلى عروقهِ. بَيْنَمَا كَانَ لسانُه يكرِّر الصَّلواتِ كَانَ عقلُه مشغولاً بالطَّعامِ الَّذِي أَمَامَه.

كَانَ المنزلُ الَّذِي ذَهَبوا إليه بَعيداً، وصوت الأذانِ يُسمعُ بصعوبةٍ، لذَلِكَ كَانوا ينتظرونَ الأذانَ منَ المذياعِ، ومرَّتِ الدَّقائقُ، ومَازالَ دخانُ الشُّوربة الموضوعةِ أَمَامَ محمَّد يدغدغُ خدودَه، ولم يؤذنْ بعدُ، تسرَّبَ القليلُ من زيتِ الكفتة إلى خارجِها، وكَانَ محمَّدٌ يتأمَّلُ أصنافَ الطَّعامِ، ولم يؤذن بعدُ، كَانَ يخافُ أن يُغمى عَلَيْهِ من الجوعِ لا قدرَ اللهُ، فسيحرمُ من هَذِهِ النِّعمةِ الممدودةِ أَمَامَهُ.

كَانَ ينظرُ إلى الأطباقِ بعينينِ شاردتينِ، يتأمَّلُ

ما بِدَاخلها، كالعاشقِ الَّذِي ينظرُ إلى حبيبتهِ، لكنَّ الأذانَ لم يُرفعْ.

مدَّ يدَه، وأخذَ الملعقةَ، وعندها أدركَ أن يدَه مُتعرِّقَة جدّاً، يتركُها أو لا يتركها، وبقيَ هكَذا حائراً، ثمَّ قالَ لنفسِه: «الآنَ سيؤذِّنُ، ونسمعُ صوتَ المؤذِّنِ (الله اكبر)»، ويكملُ محدِّثاً نفسَه: «ما إنْ أسمعُ صوتَ الأذانِ حتَّى أبدَأَ بتناولِ الشُّوربةِ». سأتركُ الملعقةَ لتجفَّ يدي قليلاً.

وعِنْدَما تركَ الملعقةَ واضعاً يدَيه أَمَامَه على الطَّاولةِ انتظروا عشرَ دقائقَ، مرَّتْ كَأَنَّها عشر سنواتٍ، عِنْدَما قالَ أحدُهم:

ـ لماذا لم يؤذِّنْ حتَّى الآنَ؟

انطلقَ صوتُ المؤذِّنِ من المذياعِ.

ـ هيَّا يا أصدقاءُ: بسمِ اللهِ.

وفي اللَّحظة الَّتِي كَانَ فيها محمَّد سينقضُّ على طبقِ الشُّوربة، أرجعتْه وكزةُ صديقه الجالسِ بجانبهِ:

ـ هلْ يجوزُ البدءُ بالطَّعام قبلَ أنْ يبدَأَ الكبارُ؟

كَانَ صاحبُ البيت ينتظرُ نهاية الأذان، ليدعُو دعاء

الإفطار، الشَّبابُ أيضاً كَانوا يدعونَ في سرِّهم، وأنهَى محمَّد كلَّ الأدعيةِ الَّتِي يعرفُها، ولم ينتهِ الأذانُ، وكَانَ هذا المؤذِّنُ لا يعرفُ أنَّ أذانَ المغرب يُقرأُ بسرعةٍ عادةً.

يكادُ الطَّعامُ أن يبردَ، لن يستمتعَ الآنَ بالشّوربةِ، والدَّسم كَادَ أن يتجمَّدَ، ولم يعدِ البخارُ السَّاخنُ يتصاعدُ من الأكلِ.

وفجأةً بعدَ انتهاءِ الأذانِ سمعوا جملة «الصَّلاةُ خيرٌ من النَّومِ». وأدركوا أنَّهم وضَعوا في المذياعِ تَسجيلاً لأذانِ الفجر بدلاً من المغربِ.

وهجمَ محمَّد على الطَّعام فورَ انتهاء الأذان، وتناولَ الشُّوربةَ ثمَّ الفطائرَ، وأقراصَ الكبَّة المقليَّة، ثمَّ طبقاً منَ الفاصولياء.

وفكَّر أنَّه منَ العيب ألَّا يتناولَ شيئاً من حَلوى الكلاجولن فيردُّ إكرامَ صاحبِ البيتِ، سيأكلُ قليلاً مِن القطايفِ، وهنا فكَّرَ أنَّه لن يسْتَطِيعَ تناولَ البرتقال واليوسفيّ، ولكن ليتَ صاحبَ البيت لم يشرحِ الفوائدَ العديدةَ للحمضيَّاتِ، وخِلالَ ثلاث دقائقَ استطاعَ صاحب

البيتِ تحضير كميَّةٍ كبيرةٍ من عصيرِ الكريبِ فروت، فَقَالَ محمَّد في نفسه:

ـ العصيرُ لا يضرُّ، وهو لنْ يسبِّبَ لي السُّمنةَ، إنَّه مجرَّدُ ماءٍ، وسيذهَبُ بسرعةٍ من الجسمِ.

وبعدَ شربِ أربعة أكوابٍ من العصيرِ تساءلَ، كَيفَ سيشربُ الماءَ الآنَ، وبعدَ الكأسِ الخامسِ من الشَّاي أدركَ أنَّه أسرفَ في الشُّربِ.

وأَصْبحَ وضعُ أزرارِ القميصِ حرجاً جدّاً من جهةِ معدتهِ، ومن جهةٍ أُخْرَى كرشِه.

وهنا عادَ صاحبُ البيتِ ليصرَّ على محمَّد أن يأكلَ من الفطائر، قائلاً أنَّ زوجتَه ستحزَن إن لم يأكلْ منها، ولكنَّ محمَّداً كَانَ قد أكلَ أكثرَ من طاقته، ولم تعد معدَته تتحمَّلُ المزيدَ، فإنَّ لكلِّ شيءٍ حدّاً.

ومرَّةً أُخْرَى يصرُّ صاحبُ البيتِ قائلاً:

ـ هَذا النَّوعُ من الطَّعام تشتهرُ به منطقتنا، خَسارة أنْ لا تتذوَّقَ شيئاً منه!

ـ ولكنَّ معدتي لم تعد تتحمَّل أيَّ شيءٍ.

ـ لا تفكِّر في معدتِك الآنَ، والتفتْ إلى ما تحبُّه عيناكَ، أَرْجوكَ أن تتذوَّقَ من هذا الكبابِ.

وبعدَ تناوُله الكبابَ باءتْ محاولاتُه بالنُّهوض من الكرسيِّ بالفشلِ، وأخيراً استطاعَ القيامَ بمساعدةِ أصدقائهِ، وبصعوبةٍ استطاعَ أن يصلِّيَ المغربَ، وبالنِّسبةِ لصلاةِ التَّراويحِ لا أعتقدُ أنَّ أحوالَه تسمحُ بالذَّهابِ إلى الجامعِ، أمَّا صلاةُ العشاءِ فعلَى الأغلبِ سيصلِّيها وهو في السَّرير.

وهنا محمَّدٌ لم يعُد يقاومُ شعورَه بالنُّعاسِ، فاستسلمَ لنومٍ عميقٍ، ولم يخلُ نومُه من الأحلامِ الَّتِي تتحدَّثُ عن الطَّعام، فقدْ رأَى أنَّ السَّماءَ تمطرُ رزّاً، وجبالاً من الكبابِ وأقراصاً من الكبَّةِ، وعادَ ليحلمَ بالحَلوى الشَّهيَّة الرّواني.

وهكَذا إلى أنِ استيقظَ على أصوات أصدقائِه يوقظونَه على السُّحورِ. وككلِّ سحورٍ؛ الجبنُ والزَّيتونُ والبطاطا والبيضُ.

ثمَّ بَدَأَ الأصدقاءُ يتجهَّزونَ للصَّلاةِ، وهنا توجَّهَ محمَّدٌ لغرفةِ عدنانَ، وعانقَه قائلاً:

ـ أَرْجوكَ يا أَخي أَن تسامحَني.

وعادَ إلى غرفته وفتحَ النَّافذةَ، ليدخلَ الهواءُ الباردُ المنعشُ، ليتسلَّلَ صوتُ الأذان ويملأ البيوتَ والحاراتِ والأزقَّةَ، والأهمُّ من ذَلِكَ يلامسُ القلوبَ، ويتملَّكُها ليخبرَ النَّاسَ أنَّه قد بَدَأَ يومُ صيامٍ جديدٍ، وهنا تذكَّرَ محمَّدٌ الأذانَ الَّذِي سَمعُوهُ على الإفطار، وهَمهمَ قائلاً:

ـ أيّ أذانٍ كَانَ ذاك!؟

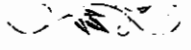

# هَلْ باضَ ديكُكُم يا سيِّدي؟

كَانَ هُناكَ قرويَّانِ يجلسانِ تَحتَ شجرةِ الصَّفصافِ الَّتِي في باحةِ المسجدِ، حَيْثُ دارَ بينَهما الحديثُ التَّالي:

ـ عِنْدَما سَيأتي من يطلبُ يدَ ابنتي، سأشترطُ عَلَيْهِ الشُّروطَ التَّاليةَ، وأقولُ له:

ـ يا بُنيَّ! أنا عِنْدِي ثلاثةُ شروطٍ لأقبلَ بأنْ أعطيَكَ ابنتي:

**أولاً**: أريدُ رجلاً متديِّناً بشكلٍ كاملٍ، يقيمُ الصَّلاةَ، ويصومُ رمضانَ، ولا أرضَى أن أُعطيَ ابنتي لشخصٍ لا يخشعُ في صلاتهِ، ولا يتَّقِي اللهَ في صيامِه.

**ثانياً**: ليسَ من الضَّروريِّ أن يكونَ غنيّاً جدّاً، لكن يجبُ أنْ يكونَ قادراً على تحمُّلِ نفقاتِ ابنتي، فلا أريدُ أن يكونَ لابنتي أطفالٌ فقراءُ.

**ثالثاً**: أن يكونَ متعلِّماً، ويأتيَ لزيارتي للتَّحدُّثِ سويَّةً أربعينَ مرَّةً.

ـ حسناً يا نهادُ آغا، ولكن ألا تَرى أنَّه من الصُّعوبةِ الحصولُ على شخصٍ كهذا في هذا الزَّمان؟

ـ لو لم يكنْ صعباً لما بقيت ابنتي لهذا اليوم في بَيْتِنا، يأتيني رجلٌ متديِّنٌ، لكنَّه عاطلٌ عن العملِ وفقيرٌ، أو رجلٌ ميسورُ الحالِ يملكُ كلَّ شيءٍ لكنَّهُ لا يصلي، وأنا من المستحيلِ أن أعطيَ ابنتي لرجلٍ لا يصلي، لأنِّي لا أضمنُ ماذا يمكنُ أن يفعلَ مَعَ ابنتي.

ـ لَقَد أتاكَ رجلٌ متديِّنٌ وفقيرٌ، وأتاكَ رجلٌ غنيٌّ ولا يصلِّي. ألم يأتكَ آخرُ يوافقُ شرطكَ الثَّالث؟

ـ نعم، أتَى مرَّةً رجلٌ لا يفارقُ المسجدَ، وميسورُ الحالِ، وقلتُ له بأنَّ عَلَيْهِ أن يأتيَ إليَّ أربعينَ مرَّة لكي نتحدَّثَ.

ـ أنتَ تطلبُ الكثيرَ يا عزيزي.

ـ لا يا صديقي، الَّذِي لا يُطيقُ تعبَ الحصادِ لا يقتربُ

منَ الزِّراعةِ. يجبُ أن أعرفَ هَلْ هو شخصٌ جيّدٌ؟ هَلْ هو متعلِّمٌ؟ هَلْ يجيدُ الحديثَ؟

مَن لا يسْتَطِيعُ الجلوس معي أربعينَ مرَّة كَيفَ سيعيشُ مَعَ ابنتي أربعينَ سنة؟!.

ـ ثمَّ ماذا حدثَ؟

ـ جَاءَ إليَّ ثماني عشرة مرَّةٍ، وفي آخرِ مرَّة قالَ:

ـ لم يبقَ عِنْدِي ما أناقشُهُ معكَ يا سيِّدي.

وغادرَ إلى غيرِ رجعةٍ.

وفي تِلْكَ الأَثْناءِ مرَّ أَمَام الرَّجلينِ جرَّارٌ زراعيٌّ، فلفتَ نظرَهما، وشاهَدا طفلاً ممتلئاً، حديثَ العهدِ بالمشي يتمايلُ يُمنةً ويُسرةً عابراً الطَّريق أَمَامَ الجرَّار.

ـ لَقَد كنتَ تتكلَّمُ عن مقابلةِ العريسِ لأربعينَ مرَّة سيِّد نهاد.

ـ بالطَّبعِ، يجبُ أن يجلسَ ويتكلَّمَ معي، وأن يكونَ مُثقَّفاً هو شرطي الثَّالث.

ـ ولماذا تُرِيْدُهُ شَخصاً مثقَّفاً؟

ـ يُوجَدُ قولٌ مأثورٌ: (اطلبوا العلمَ ولو في الصِّينِ)، وقولٌ لأحد الصالحين: (مَن علَّمني حرفاً كنتُ له عبداً).

ـ لم أفهمْ جيِّداً!

ـ لو كنتَ مثقَّفاً لفهمتَ.

هكذا قالَ له معلِّقاً، وأطلَقا ضحكةً عاليةً.

تابعَ نهادُ آغا حديثَه مبتَسماً:

ـ هَلْ تعرفُ يا أخي أنَّ حَرفاً واحداً غيَّرَ لي حياتي!.

ـ كَيفَ يا عَزيزي؟

ـ سأشرحُ لكَ.

ـ كَانَ أبي رجُلاً فقيراً راعياً، وأتذكَّرُ أنَّ جدِّي كَانَ راعياً، فأصبحْنا جميعنا رعاةً، ولم نكنْ نعرفُ ما هيَ المدرسة ولا التَّعلم، بعدَ ذَلِكَ ذاتَ يومٍ وأنا أرعَى الغنمَ، رأيتُ أطفالاً يذهَبونَ إلى المدرسةِ، يلبسونَ أحذيةً سوداءَ، ويضعونَ قبَّعاتٍ على رؤوسِهم، وثوباً مدرسيّاً جميلاً. حسدتُهم وحزنتُ على نفسي، وتمنَّيتُ لو أنَّني أسْتَطِيعُ الذَّهابَ إلى المدرسةِ أيضاً، وبَدَأتُ بالبكاءِ.

ـ هل بكيتَ بِسَببِ عدمِ قدرتِكَ على الذَّهابِ إلى المدرسةِ؟

ـ بالطَّبعِ، وأيّ بكاءٍ.

كنتُ وقتَها في الخامسةِ من عُمري، وعِنْدَما بكيتُ عادَ الجميعُ ليسألَني لماذا تبكي؟ فتركتُ الأغنامَ، وجلستُ على حجرةٍ، وباشرتُ بالبكاءِ، فجَاءَ أحدُهم ذو وجهٍ مبتسمٍ إلى جانِبي، يرتدي «بدلةً» جميلةً، وحذاءً أسودَ لامعاً.

ـ مَن هو؟

ـ مَن سيكونُ؟! معلِّمُ المدرسةِ، قالَ لي:

ـ لماذا تَبكي يا ولدي؟

ـ كلُّ الأطفالِ يذهَبونَ إلى المدرسةِ، وأنا خلفَ الأغنامِ، كلُّ الأطفالِ سيصبحُ لهم مستقبل زاهر، وأنا سأبقَى راعياً.

ـ سأعلِّمك حَرفاً واحداً.

وأخذَ من الأرض ثلاثَ حصوات، (وحملَ نهاد آغا

من الأرض ثلاثَ حصواتٍ، ليريَه ما فعلَ المعلم، وشكَّلَ من الحصَى حرفَ الألفِ)، ثم قال:

ـ وهكَذا فعل المعلِّمُ، وقالَ لي:

ـ هذا حرفُ الألفِ، وهكَذا يُكتبُ.

وكمْ سعدتُ يومَها وكم فرحتُ بشكلٍ لا يوصفُ، وكنتُ على وشكِ إعطاءِ جميعِ الأغنامِ للمعلِّمِ من مدَى فرحَتي وسعادَتي، وقلتُ في نفسي: (الآنَ أعرفُ كتابةَ حرفِ الألفِ، وكنتُ أرسمُ الحرفَ على الورقِ، وأحفرُهُ على الشَّجرِ، ومن الحَصى الصَّغيرةِ أشكِّلها.

ـ الله الله، ألمْ يقلِ النَّاسُ لك شيئاً؟

ـ كَانوا يظنُّونَ أنِّي أحبُّ فتاةً أوَّلُ حرفٍ من اسمِها هو الألفُ.

حتَّى ظنَّ النَّاسُ أنَّني أحبُّ ابنةَ المرحومِ محمود آغا.

ـ هذا الحرفُ كَيفَ غيَّرَ حياتَك؟

ـ سنة (1960) جَاءَ رجلٌ من المدينةِ، وقالوا إنَّه سيأخذُ عمالاً إلى ألمانيا، وكَانَ طويلَ القامةِ، مفتولَ العضلاتِ، إذا عصرَ الحجرَ يخرجُ منه الماءُ، فذَهَبنا مَعَ

مجموعةٍ من النَّاسِ إليه، وانتظرْنا حتَّى الثَّانية، فأخذَ الرَّجلَ ذا الشَّاربِ، وخمسةً آخرينَ، وبَقينا ثلاثةَ أشخاصٍ ننتظرُ، وكلٌّ يَقُولُ في نفسِه لعلهُ يأخذُني!!

وجَاءَ إِلَينا، وسألَ:

ـ هَلْ يُوجَدُ أحدٌ بَينكم يعرفُ القراءةَ والكتابةَ؟

أجاب البقيَّةُ:

ـ لا.

بَيْنَمَا أسرعتُ بكتابةِ حرفي المشهورِ «الألفِ»، فاقتربَ منِّي وظنَّ أنَّني سأكتبُ شيئاً مهمّاً، فقالَ:

ـ حسناً حسناً، سآخذُ هذا الشَّابَّ.

وذَهَبتُ إلى ألمانيا، واشتغلتُ ليلاً نهاراً دونَ توقُّفٍ. والحمدُ للهِ أَصْبحَ عِنْدِي قليلاً من النُّقودِ.

ـ يا إلهي! انظرْ لِهذا الحرفِ مَاذا فعلَ؟

ـ ثمَّ بعدَ ذَلِكَ بَدَأتُ ألتفتُ لنفسي، فذَهَبتُ إلى المدرسةِ المسائيَّةِ، وكنتُ أسرعُ إلى المدرسة، وأنظِّفُ يديّ ووجهي من أثر الشُّحومِ والزُّيوتِ التِي اتَّسخت بها

في المصنعِ، وتعلَّمتُ القراءةَ والكتابةَ، وكلّ الَّذِي أَكسبه أصرفهُ على تعليمي، وكلَّما تعلَّمتُ أكثرَ تغيَّرتْ حياتي.

وبَدَأتُ أطوِّرُ نفسي في مجالِ العلومِ الدينيَّة والدنيويَّةِ، فقرأتُ القرآنَ وسيرةَ الرَّسولِ ﷺ، وتفسيرَ القرآنِ الكريمِ، وكم تأسَّفتُ على حياتي الماضيةِ كحياةِ الحيواناتِ، «أستغفرُ اللهَ».

لذَلِكَ أنا أهتمُّ بالعلم، وأريدُ ممَّن يتزوجُ ابنتي أن يكون صاحب علمٍ.

بالنِّسبةِ لي حرفٌ واحدٌ غيَّرَ حياتي، وأريدُ أن ينيرَ العلمُ حياتَهم، ويضيءَ دروبَهم.

ومن بعيدٍ كَانَ هُناكَ شابٌّ اسمُه أحمدُ ديميرجي، بعدَ سماعهِ الحديث الَّذِي دارَ بيني وبينَ الرِّجالِ أمسَى وكَأنَّ أحلامَهُ قدِ انهارتْ.

هذا الشَّابُّ قد رأى ابنةَ السَّيدِ نهاد «نور» مرَّةً واحدةً فقطْ، وتعلَّقَ قلبُه بها، وتذكَّرَ كَيفَ أنَّ سيَّارةَ السَّيد نهاد قدِ انفجرَتْ عجلتُها، وكَانَ مارّاً بالشَّاحنةِ من نفسِ الطَّريقِ، فأخذَه وابنته معه، ومن حينِها تعلَّقَ قلبُه بحبِّها.

ولأيَّامٍ كثيرةٍ كَانَ يحاولُ رؤيتَها بمرورهِ أَمَامَ البيتِ، ولكنَّه لم يفلحْ، وكَانَتْ نور مهذَّبةً، عفيفةً متديِّنةً، لا تتجوَّلُ في القريةِ كثيراً، وذاتَ مرَّةٍ رآها وعرفَ أنَّ عيونَها خضراء.

كَانَ يفكِّر كثيراً بشروطِ السَّيد نهاد. بالنِّسبةِ للصَّلاةِ فهو مثابرٌ عَلَيْها مُنْذُ الطُّفولةِ.

أمَّا الصِّيام فقدِ اعتادَ على صيامِ الإثنينِ والخميسِ. وكذَلِكَ الزَّكاة، ويتصدَّقُ على الفقراءِ والمحتاجينَ، بقيَ الحجُّ فقطْ، يفكِّرُ أنَّه بعدَ الزَّواجِ سيذهَبُ لأداءِ هَذِهِ الفريضةِ.

كَانَتْ نور ابنةَ السَّيدِ نهاد الوحيدةَ، ولدَيها أخوانِ أكبر منها متزوِّجانِ، أحدُهما سافرَ إلى إسطنبول، والثَّاني إلى ألمانيا.

وبعدَ وفاةِ والدتِها بقيتْ مَعَ والدِها بالبيتِ، والَّذِي يُعتبرُ من أغنياءِ القريةِ، وكَانَ متواضعاً رغمَ غناهُ.

علَّمَ أولادَه تعليماً جيِّداً، وكَانَ محبّاً لفعلِ الخيرِ، ولكنَّه لا يُريدُ لأحدٍ أنْ يعلمَ ذَلِكَ. ويردِّد:

ـ كلُّ شيءٍ تفعلُه من أجلِ أنْ يرضَى اللهُ عنكَ، لا ليرضَى العبدُ عنكَ.

تعلَّق السَّيدُ نهاد بابنتهِ كثيراً، ولا يَدْري ماذا سيفعلُ بعدَ زواجِها، فقد بلغت سنَّ الزَّواجِ، وكَانَ لا بدَّ من تزويجِها، وبناءِ أسرةٍ خاصَّةٍ بها، وقد تجاوزَ عمرُهُ السَّبعينَ، ولا يعلمُ ما تخبِّئُ له الأقدارُ في المستقبلِ.

أحمدُ يمرُّ أَمَام بيتِ نور على أملِ رؤيتِها، ولا يملُّ من ذَلِكَ، وقد اعتادَ على هَذا الحالِ، فقدْ أحبَّها كثيراً وهي تسكنُ بعيدةً عنهُ.

وفكَّرَ أنَّه لا بدَّ أن يفعلَ شيئاً في هذا الموضوعِ، فذَهَبَ إلى صديقهِ سليمانَ، وأَرادَ أنْ يقصَّ عَلَيْهِ حكايتَهُ، خجلَ كثيراً، واستصعبَ الأمرَ وتعرَّقَ كثيراً!.

وأخيراً نطقتْ شفتاهُ بأوَّلِ جملةٍ:

ـ سليمان! أنا أريدُ الزَّواجَ!

ـ آه، مُنْذُ الصَّباحِ وأنتَ تحاولُ أن تقولَ هذا، حسناً لا توجدُ مشكلةٌ.

ـ حسناً، لَقَدْ قلتُ لكَ، وأما بالنِّسبةِ لي مشكلةٌ!

ـ هَلْ يُوجَدُ عندكَ أحدٌ؟

ـ نعم يُوجَدُ.

ـ مَن؟

ـ ابنةُ السَّيدِ نهاد!

ـ لا تقلْ هذا!

ـ ماذا دهاكَ سليمان؟

ـ أليسَ السَّيدُ نهاد الَّذِي نعرفُه، كَيفَ ستسْتَطِيعُ مقابلَته؟

ـ واللهِ لا أعرفُ! أنا محتارٌ وحزينٌ!

ـ واللهِ السَّيدُ نهاد رجلٌ صالحٌ، ولكنَّه لا يعطي ابنتَه بسهولةٍ. وقدْ طَلَبَها قبلكَ الكثيرُ، ولم يعطها، قالتْ لي زوجَتي ذَلِكَ، وقدْ سمعتُ ذَلِكَ من جاراتِها، وله شروطٌ كثيرةٌ!

ـ أعرفُ ذَلِكَ.

ـ يعني حتَّى يزوِّجَ ابنتَه يبحثُ عن رجلٍ فريدٍ من نوعهِ، برأيكَ هَلْ يكفي حبُّك هذا!؟

ـ ماذا أفعلُ؟ لَقَد أحببتُها، وسأحاولُ أنْ أتزوَّجَها إنْ كَانَ هُناكَ نصيبٌ.

ـ وإذا لم يكنْ هُناكَ نصيبٌ، هَلْ ستهربُ؟

ـ أعوذُ باللهِ، إنْ لم يكنْ هُناكَ نصيبٌ سأرضَى بما كتبَه اللهُ لي.

ـ حسناً، وماذا عنِ الفتاةِ، هَلْ تحبُّكَ أيضاً؟

ـ أعتقدُ ذَلِكَ.

ـ هل يُوجَدُ بينكما حديثٌ؟

ـ آه، كلَّا طبعاً، وكَأَنَّها ملكةٌ لبستْ تاجَ العفَّة، طبعاً كلَّا يا سليمانُ، أنا بالكادِ رأيتُها مرَّةً واحدةً.

ـ إذاً من أَيْنَ لكَ أنْ تعرفَ أنَّها تميلُ إليكَ؟

ـ لَقَد اعتادَ كلابها عليَّ.

وهنا حكَّ الطَّحَّان سليمانُ رأسَه، وأطلق ضحكةً عاليةً:

ـ أنتَ تقولُ «الكلابَ»!

ـ أَرْجوكَ لا تسخر مني، الآنَ كلابُها لا تنبح عليَّ.

ـ هاااا، وأَصْبحَ الآنَ عندكَ أملٌ ! جيِّدٌ واللهِ.

وتكلَّما هَذِهِ المرَّة والطَّحَّانُ يملأُ الأكياسَ، ويفرغُ داخلَها الدَّقيقَ، وهكذا جَاءَ أحمدُ إلى صديقهِ الطَّحَّانِ يشكو همَّه، ويجدُ حلّاً للمشكلةِ.

والله وحدهُ يعلمُ ماذا سيَحْصُلُ!!

وفكَّرَ كَيفَ أنَّ حبَّةَ القمحِ تدخلُ بينَ أحجارِ الرَّحى بنيَّةَ اللَّونِ، وتخرجُ بيضاءَ اللونِ ناصعةً، وأقنعَ نفسَه أنَّ المسألةَ تحتاجُ صبراً.

وفي هَذِهِ الأَثْناءِ عجنَ سليمانُ طحيناً، وصنعَ منه خبزاً، وأدخلَه الفرنَ، وبعدَ قليلٍ بَدَأَ بالانتفاخِ، وتركَ الخبزَ الحارَّ، وجَاءَ لعندِ صديقهِ قائلاً:

ـ هل غضبتَ منِّي؟

ـ كلّا، أبداً، أنتَ أيضاً محقٌّ في ذَلِكَ، انظرْ إلى حالي أصبحتُ أتأمَّلُ كحالِ الكلابِ أشعرُ بالضَّجرِ.

ـ لا تقلقْ! سنجدُ حلّاً.

ومدَّ الطَّحَّانُ على الأرضِ عدَّةَ أكياسٍ، ومدَّ أَمَامَه جريدةً، ورتَّبَ مكَاناً للجلوس، ووضعَ الخبزَ النَّاضجَ على الجريدةِ:

ـ لم يبقَ لكَ عذرٌ، هَذِهِ ضيافتي.

ـ أيُّ عذرٍ، الحمدُ للهِ أنَّنا لا نأخذُ طعامَنا من أحدٍ.

هذا القمحُ المباركُ الَّذِي نزرعُه في حقلِنا لا نأخذُه من أحدٍ، الحمدُ للهِ أبي لم يطعمْنا يوماً لقمةً من المالِ الحرامِ.

وقام بعدَها إلى حديقةِ الطَّاحونةِ، وأحضرَ بندورةً وفليفلةً، وبعدَ أن غسَلها وضعَها على الخبزِ، وهرسَهم بيدَيه.

فاحتْ رائحةُ الخبزِ وملأتِ المكَانَ برائحةٍ زكيَّةٍ شهيَّةٍ، وبعدَ أن تَناولَ أحمدُ أوَّل لقمةٍ قالَ سليمانُ متابعاً:

ـ الآنَ ارتحْنا بعدَ أنْ شَبعْنا، للكَ الحمدُ ياربّ.

ـ الحمدُ للهِ.

ـ ماذا تقولُ يا سليمانُ، أنتَ تعرفُ أنَّ أبي متوفٌّ، وأمِّي امرأةٌ متقدِّمةٌ في العمرِ، قلْ لي ماذا أفعلُ؟

ـ رأيي أولاً أنْ تذَهَبَ إلى السَّيدِ نهاد، وتتكلَّمَ معَه، وبعدَها اللهُ كريم.

ارتبكَ أحمدُ كثيراً، وكَأنَّ يدَيه مربوطتانِ إلى عنقِه، وشعرَ باختناقٍ، فالكلامُ مَعَ السَّيدِ نهاد صعبٌ جدّاً.

وعندَ ذَهابه إلى البيتِ قصَّ لأمِّه ما يُريدُه، ولم يكنْ باستطاعةِ الأمِّ أن تفعلَ شيئاً سِوى الدُّعاء.

ـ يارب يسِّر الخيرَ لابني، وأبعدِ الشَّرَّ عنه، يارب.. لا تُحزنْه، ولا تكسرْ له خاطراً.

وفي اليومِ التَّالي قَرَّرَ أحمدُ الذَّهاب، والتَّحدُّث مَعَ السَّيد نهاد، «وليكن ما يكون» قال في نفسِه. دعا كثيراً في صلاةِ العشاءِ، ثمَّ نامَ في فراشهِ، وهو يفكِّر ماذا سَيفعل في الغد.

كَم هي مهمَّةٌ صعبةٌ، انقلبَ إلى اليمين، ولم يسْتَطِعِ النَّومَ، وهو يتقلَّبُ في فراشه، وكَأَنَّهُ خائفٌ من أن يَقُولَ كلاماً غيرَ مناسبٍ للسَّيد نهاد.

وعندَ منتصف اللَّيل نام أحمدُ، ورأى السَّيدَ نهاداً في منامِه يضحكُ قائلاً:

ـ هل ربَّيتُ ابنتي لأعطيَها لحدَّادٍ!؟ على كلِّ حالٍ عِنْدِي ثلاثةُ شُروطٍ:

نهضَ أحمدُ صائحاً:

ـ سليمان.. سليمان!

وعِنْدَما أدركَ! أنَّه مناماً هدَّأَ من روعهِ قليلاً، وكَانَ قَد

أذَّنَ الفجرُ؛ وبعدَ الصلاةِ توجَّهَ إلى الدُّكَّان حَيْثُ كَانَ ينتظرُه زبونٌ.

ـ حسناً، لَقَد وصلتُ في الوقتِ المناسبِ!

عملَ نعلاً للحصان وأصلحَ المحراثَ والعربةَ، ثمَّ طَلَبَ أشياء ضروريَّة للدُّكَّان.

كلُّ هذا، وعقلُه عندَ السَّيدِ نهاد، ذَهَبَ إلى صلاةِ الظُّهرِ، واقتربَ من السَّيدِ نهاد ليتكلَّمَ معَه، لكنَّ السَّيدَ نهاد ذَهَبَ للوضوءِ، ولم يعرفْ إن كَانَتْ رؤيته قد أراحتْه أمْ أقلقتْه!.

وفي نهايةِ الصَّلاة دعا في سرِّه: «يارب ساعدْني»، وعندَ الخروج، اقتربَ من السَّيد نهاد، وعقدَ يدَيه أَمَامَه، ومدَّ عنقَه مخاطباً السَّيدَ نهاد:

ـ عمُّ نهاد، هُناكَ موضوعٌ خاصٌّ أريدُ أن أتحدَّثَ به إن يسمح وقتكَ؟

هَذا ما استطاعَ أن يَقُولَ، بِسَببِ توتُّره الشَّديد، وشعورهِ بالاختناقِ، والتصقتِ الكلماتُ في حلقهِ، وارتجفَ صوته، وانقطعَ نفسُه، فَقَالَ له:

ـ أووه، أيُّها الحدَّاد الشَّاب، تعالَ نجلسْ هنا.

وحتَّى يهدِّئَ من روعِ أحمدَ ابتدأَه قائلاً:

ـ كيفَ يسيرُ عملكَ؟

ـ الحمدُ للهِ جيِّدٌ جدّاً.

ـ فرحتُ لكَ يا أحمدُ، لأنَّ النَّاسَ يحترمونكَ إذا كَانَ لديكَ مالٌ.

ـ معكَ حقٌّ ياعمُّ.

وبحثَ أحمدُ عن قطعةٍ من الخشبِ ليجلسَ عَلَيْهِا، واعتدلَ قائلاً:

ـ جِئنا إلى أصلِ المشكلةِ: «كيف أدخل بالموضوع؟».

واحمرَّ وجهُه، وتعرَّقَ حتَّى ظَهره، وبَيْنَمَا هو علَى هَذِهِ الحالةِ، تابعَ السَّيدُ نهاد قائلاً:

ـ نسيتُ أن أشكرَكَ ذَلِكَ اليوم، لأنَّكَ أوصلتَنا إلى البيتِ عِنْدَما كنَّا عالِقين في الطَّريقِ.

ـ أستغفرُ اللهَ، ليسَ هُناكَ داعٍ للشُّكرِ.

ـ كَيفَ ذَلِكَ؟ لو لمْ تأتِ لكنَّا بَقينا في الطَّريقِ حتَّى اللَّيل، وربَّما مرضنا أنا وابْنتي نور.

وعِنْدَما نطقَ السَّيد نهاد اسمَ ابنتِه، أحسَّ أحمدُ، كَأنَّ قلبَه يكادُ يخرجُ من صدرِه، بَيْنَمَا أكملَ السَّيدُ نهاد قائلاً:

ـ اسمعْني يابنيَّ: إنَّ عمري قاربَ السَّبعينَ، ولو شرحتُ لكَ بماذا مررتُ في حَياتِي من قصصٍ وتجاربَ لن ننتهيَ اليومَ، والحياةُ على طولِها «مثل رفَّة جفنٍ»، لذَلِكَ فهمتُ تقريباً مطلَبَكَ، ولكنَّني مَعَ ذَلِكَ أريدُ أنْ أسمعَها منكَ.

احمرَّ وجهُ أحمدَ، وبَدَأَتْ يداهُ ترتجفانِ، وتبلَّلَ بالعرقِ، وأطرقَ رأسَه، وتمالكَ نفسَه واستجمعَ كلَّ شجاعتهِ، وقالَ:

ـ يا عمُّ! إذا كنتمْ تَرونَ أنَّ مطلَبي مناسبٌ سيكونُ خيراً بإذنِ الله.

وبمجردِ خروجِ هَذِهِ الكلماتِ من فمهِ، أحسَّ وكَأنَّ همومَ الدُّنيا قدِ انزاحتْ عن صدرِهِ، ولكنَّ هذا الشعورَ لم يستمرَّ طويلاً، ليعودَ الخوفُ والقلقُ يسيطرانِ على تفكيرِهِ من ردِّ فعلِ السَّيدِ نهاد، ولكن على عكسِ توقُّعاته، ابتسمَ السَّيدُ نهاد ابتسامةً عريضةً، ثمَّ قالَ:

ـ أنا أتفهَّمكَ يا ولدي، ولكنَّها ابنتي الوحِيدَة كما تعرفُ، ولا أريدُ أن أعطيَها لشخصٍ لن تجدَ السَّعادةَ معَه، فأنا أريدُ أن يكونَ زوجُ ابنتي متديِّناً صائماً مصليّاً، وضعه المادِّيُّ جيِّدٌ، وتلكَ الجلساتُ الأربعونَ أنتَ تعرفُها طبعاً.

بالنسبةِ لكَ الشَّرطان الأوليان ليسَ بمشكلةٍ، بقيَ الشَّرط الثَّالثُ، وجلستُنا هَذِهِ تعدُّ الأولى، وبقيَ تسع وثلاثون جلسة إنْ أتممتَها ونلتَ رضايَ، عندَها تستحقُّ ابنَتي رسميّاً.

ثمَّ اعتدَلَ قائماً، وقال مغادِراً المكَانَ:

ـ وفقكَ الله يا بُنيَّ.

وغرقَ أحمدُ في وساوسهِ، لا يعلمُ أيفرحُ أم يحزنُ؟ ولكنَّه على الأقلِّ هُناكَ شيءٌ إيجابيٌّ أراحَه قليلاً: هو أنَّ السَّيدَ نهاد لم يعترضْ نهائيّاً عَلَيْهِ، وفجأةً اكتشف أنَّ الأمرَ كَانَ أسمَى بكثيرٍ ممَّا توقَّعَ.

واستقبلَتْه والدتُه المسنَّةُ قائلةً:

ـ خيراً يا بُنيَّ! هذا الرَّجل محقٌّ، فهو لا يُريدُ أن يعطيَها لأيِّ كَانَ، وسيجعلُها اللهُ من نصيبكَ.

هذه الزِّيارةُ الأولى لبيتِ السَّيدِ نهاد، استقبلَه في الحديقةِ، وجلسَا تحتَ ظلال عريشة العنبِ الكثيفة، ورائحةُ الأزهار تملأُ المكَانَ، وراعَ انتباهَه حبلٌ من الغسيلِ، وقد نشرَ عَلَيْهِ ستائرُ بيضاءُ اللَّون ناصعةٌ، فَقَالَ في نفسه: «حملةُ التَّنظيف هَذِهِ بمناسبةِ قدومِ الضَّيف».

كَانَ السَّيدُ نهاد يتململُ، منتظراً أن يبدَأَ أحمدُ بالكلام، الَّذِي افتتحَ الحديثَ بالكلام عن معلِّمه في الحدادةِ:

ـ رحمكَ اللهُ يامعلِّمي، وأدخلكَ فسيحَ جنانه، لَقَد كَانَ يَقُولُ لي دوماً:

ـ قلبُ الحدَّاد يجبُ أن يكونَ أقسَى من الحديد.

ويقصدُ به أن يكونَ متحلِّياً بالصَّبر، وإلَّا لن ينجحَ في مهنتِهِ.

ـ قلْ لي مَاذا استفدتَ من ذَلِكَ؟

ـ أقولُ: إنَّ الشَّخصَ إذا لم يحترق بشكلٍ جيِّدٍ، ولم يستطعْ أن يشكِّلَ نفسَه، يبقَى بلا قيمةٍ، مثل أيِّ قطعة حديدٍ لا قيمةَ لها. والإنسانُ الَّذِي يضعُ هدفاً أَمَامَ عَينيه،

ويسعَى إليه هو مثلُ الَّذِي يصنعُ من الحديد قطعاً، فَيعطي للحديدِ قيمةً عاليةً.

ـ والنَّتيجةُ؟

ـ النَّتيجةُ أنَّ الإنسانَ الَّذِي لم يتعرَّضْ للمحنِ والشَّدائدِ كتعرضِ الحديدِ للهيبِ النَّار، سيعيش حياتَه كما الحيوان يأكل ويشرب وينام فقَط، وهذا يجب أن لا يكونَ.

الَّذِي يتعرَّض للمحن يجب أن يكونَ مؤمناً بالله، واثقاً بقدرته، وإلَّا بدلاً من أن يخرجَ من المحنة أقوى سيحترق لا قدَّرَ الله.

ـ معكَ حقٌّ أيُّها الشَّاب. ما أجملَ ما قلتَ!. كلُّ إنسانٍ يسعى خلفَ رزقه.

كلامُ أحمدُ موزونٌ لدرجةِ أنَّ السَّيدَ نهاد لم يستطعْ أن يضيفَ كلمةً، وهكَذا اجتازَ أحمدُ هَذِهِ المقابلةَ بنجاحٍ وبقيَ ثمان وثلاثون واحدَةً، وردَّدَ في سرِّه: «الله كريم».

وذَهَبَ إلى الدُّكَّانَ وفتَحَها، ونظرَ إلى الجدران القديمةِ ذاتِ اللَّونين الأسودِ والرَّمادي، وإذا بأحد القرويِّين يدخلُ ومعَه حصانه يُريدُ تغييرَ نعلَيْهِ، وبَيْنَمَا هو

يحضرُ النَّعلين كَانَ يربط الحصانَ بأحد الحلقاتِ الموجودةِ في الحائط. قالَ القرويُّ:

ـ يا معلم أحمدُ، لا داعي لربطِ الحصانِ؛ حصانُنا ذكيٌّ ولن يهربَ.

قالَ أحمد:

ـ رحمَ الله معلِّمي حينَ قالَ: «ممكن أن تأمنَ للإنسانِ، ولكن الحيوانَ اربطه بالحديدِ تأمنْه».

وركَّبَ النَّعلينِ الجديدَين للحصان بعدَ نزعِ النَّعلين القديمين، وبَيْنَمَا هو مستغرقٌ في عمله، خطرتْ له فكرةٌ، ووجدَ موضوعاً سيتحدَّث به في الغدِ، وعندَها شعرَ بسعادةٍ كبيرةٍ.

وفي صباحِ اليوم التَّالي، كَانَ واثقاً من نفسِه، وهو يطرقُ بابَ السَّيد نهاد، وانتَبهَ إلى أنَّه كل يوم تتغيَّر السَّتائر المنشورةُ على الحبلِ، فَقَالَ في نفسه:

«أظنُّ أنَّ عندَهم عدداً كبيراً من السَّتائر، وكلّ يومٍ يغسلونَ واحدةً»، وابتدأَ حديثَه:

ـ عِنْدَما أضعُ نعالاً جديدةً للحيِّ، أربطُها بحبالٍ قويَّةٍ، ولا أقبلُ أن أتمَّ عَملي إلَّا على هذا الشَّكل.

سألَ العمُّ نهاد الشَّاب:

ـ لماذا؟

ـ لأنَّ الحيوانَ بهذا الشَّكل يدومُ نعلُه مدَّةً أطول، ويسْتَطِيعُ القفزَ بحريَّةٍ وراحةٍ أكثرَ. مثلاً عِنْدِي صديقٌ حدَّاد لا يفعلُ مثلي، وتخلخلَ النَّعلُ أَثْناءَ سيرِ الحصان، ووقعَ الرَّجلُ على الأرض، وكُسرت رقبتُه، وتركَ خلفَهُ يتيمين صغيرين، ولذَلِكَ إذا أردتَ أن تكونَ ناجحاً في أيِّ عملٍ هُناكَ شرطٌ مهمٌّ!

ـ ما هو؟

ـ أن تبدَأَ أيَّ عملٍ بالبسملةِ، فيبارك اللهُ لكَ في عملكَ.

ـ معكَ حقٌّ أيُّها الشَّاب.

وتبادلَ الاثنانِ السَّلامَ وافترَقا.

في طريقهِ في اليومِ التَّالي كَانَ يحاولُ هذا الحدَّادُ الشَّاب العنيدُ جاهداً، أن يصنعَ شيئاً من الحديدِ، من

الصَّعبِ جدّاً أن يكونَ، ولكنَّهُ استمرَّ في محاولاته مردِّداً: «الإنسانُ العنيدُ لا يتراجعُ أبَداً».

وفي اليومِ التَّالي ابتدأَ حديثَهُ بهَذِهِ الجملةِ:

ـ الحديدُ لا يفلُّه إلَّا الحديد.

واختتمَ بهَذا الدُّعاء:

ـ يا رب احفظْ علينا صحَّتَنا وقوَّتَنا، ولا تجعلْنا نحتاجُ لأحدٍ.

وفي اليوم التَّالي:

ـ لا تخفْ من وصولِ نشارةِ الحديدِ إلى يديكَ، إلى قدميكَ، إلى كلِّ جسدكَ، ولكن الخوفَ إذا وصلَت إلى عينيكَ.

إذا كَانَ لديكَ صديقٌ فلا تدقِّق في عيوبِه، لأنَّه سيكونُ كما قال الشَّاعرُ:

**إذا كنتَ في كلِّ الأمورِ معاتباً**
**صديقَكَ لن تلقَى الَّذِي لا تعاتبُه**

ومرَّ أُسْبُوعٌ على هذا النَّحو، وأخذَ أحمد يفكِّر بالَّذِي

سيَقُوله في المرَّاتِ القادمةِ، لأنَّ حياتَه لا تتعدَّى أن تكونَ بينَ جدران الدُّكَّانِ.

من هَذِهِ الدُّكَّانِ كَانَ ينظرُ إلى الدُّنيا، وكَانَ يدركُ أنَّه لا يملكُ من أسبابِ الحياةِ الرَّغيدةِ شيئاً، ولكنَّه كَانَ سعيداً، صحيحٌ أنَّ الشَّمس كَانَت لا تضيءُ هذه الدُّكَّانَ بأشعَّتِها، ولكن نورَ الإيمان كَانَ يضيءُ وجه أحمدَ.

ابتدأَ أحمدُ الأُسْبُوعَ التَّالي بشَكوى قائلاً:

ـ كلُّ الأشخاص الَّذِين يأتونَ إلى الدُّكَّانِ يطلبونَ منِّي أن أصنعَ لهم من أرخصِ الموادِّ، ثمَّ يشكونَ ويتذمَّرونَ من سوء النِّعال، وسرعة كَسرها. وتابع قائلاً:

ـ إذا بخلتَ على نفسكَ في الدُّنيا، سَتواجه مشاكلَ كبيرةً في الآخرة.

واستمرَّتِ المقابلاتُ الباقيةُ على هذا النَّحو، متكلِّماً عن حياتهِ، ومشاكل عملِه، وبقيَ عشرُ مقابلاتٍ، وسيفوزُ بحبيبتِه نور، وعادَ لتملأَ نفسَه المخاوفُ، وفكَّر أنَّ الكلامَ كادَ أن ينتهيَ، وكلّ تجاربِه وما تعلَّمه في هَذِهِ الدُّنيا قد تحدَّث عنه، وعرضَ على العمِّ نهاد أن يكتفيَ بهذا القدرِ،

ولكنَّه شعرَ بالنَّدمِ الشَّديدِ على كلامهِ عِنْدَما ردَّ عَلَيْهِ العمُّ نهاد:

ـ شخصٌ لا يسْتَطِيعُ أنْ يفعلَ إلَّا هذا القدر لن أعطيَه ابنَتي!.

وشعرَ أنَّه قد أسقطَ في يديه، فَقَالَ مازحاً:

ـ أنا لا أقصدُ هذا، ولكن أقولُ بدلاً من أربعينَ، لتكنْ شهراً وتسعةَ أيَّام.

وبَدَأَ يشعرُ بأنَّ الأمورَ بَدَأَت تصعبُ عَلَيْهِ. فذَهَبَ إلى صديقهِ الطَّحَّانِ شاكياً له همَّه:

ـ آهٍ يا صديقي، بقيَ لي عشرة أيَّام، ولكنِّي أشعرُ أنَّني لا أسْتَطِيعُ أن أكملَ!.

ـ لا أعرفُ ماذا أقولُ لكَ ياصَديقي؟

ـ السَّيد نهاد يظنُّ أنَّ عِنْدِي حجرٌ سحريٌّ، أصطادُ به أربعينَ غراباً، ولكنَّني وصلتُ إلى هذا القدرِ، ولنْ أتراجعَ ياصَديقي.

ـ الَّذِي تَشتهي نفسُه القشدةَ، يجبُ أن يحملَ معه جامُوساً.

ـ أتسْتَطِيعُ أن تعطيَني أيَّ فكرةٍ؟

ـ لا أَدْري، ولكن أفكِّرُ وأنا أنظرُ إلى حجرِ الطَّاحونِ يدورُ أنَّ الدُّنيا أيضاً تدورُ مثله. وعِنْدَما أنظرُ إلى حمارنا المسكينِ أشكرُ اللهَ أنَّه خلقَني إنساناً.

ـ غير هذا.. ألا يُوجَدُ شيءٌ آخر عندَك؟

ـ عِنْدَما أرَى معاناةَ الحمارِ من الأحمالِ الَّتِي يحملُها، أتذكَّر دوماً هَذِهِ الكلماتِ: «دَعِ الحمارَ إلى العرسِ، إمَّا لإحضارِ الخشبِ، أو لنقلِ الماءِ».

وغضبَ أحمدُ من صديقِه، وقالَ له مُشيراً بنفاذِ صبرٍ إلى الحمارِ:

ـ أنا أحدِّثُك عن الدُّنيا، وأنتَ تحدِّثُني عن حمارِك!.

ـ حسناً لا تغضبْ، خذْ هذا إذاً.

وقالَ شيئاً آخر عن الحمار.

ـ لا حولَ ولا قوَّةَ إلَّا بالله!

ـ حسناً، هذا الَّذِي يعرفُه صديقُك الطَّحَّانُ.

ـ آهٍ منكَ، أنا بماذا أفكِّر، وأنتَ ماذا تقولُ! حسناً أنا ذاهبٌ.

وغادر المكَانَ مودِّعاً صديقَه بابتسامةٍ، ومشى في طريقهِ غارقاً في همِّه، متسائلاً ماذا سيحدِّثُ العمَّ نهاداً في الغدِ؟ ومسترجعاً كلامَ صديقِه الطَّحَّان علَّه يجدُ شيئاً ما، وأخيراً لمعتْ في ذهنهِ فكرةٌ، وأسرعَ الخُطا إلى بيتِ السَّيدِ نهاد.

ـ أيُّها العمُّ، يجبُ على الإنسان أن يربط حمارهُ ثمَّ يتوكَّل على الله: «اعقل وتوكل» يعني أنَّ الإنسانَ يجبُ أن يفعل ما بوسعه، ثمَّ ربُّنا يتولَّى النَّتيجة.

وهكذا مرَّ هذا اليوم أيضاً، وغداً الرَّبُّ كريمٌ.

وفي اليوم التَّالي:

ـ يا عمُّ: يجبُ على الإنسان ألَّا يذهَبَ إلى مَكَان لم يُدعَ إليه، وقديماً قالوا: «الَّذِي يذهَبُ بدون عزيمةٍ، يعودُ بلا قيمةٍ».

ومرَّتِ الأيَّامُ على هذا المنوال، وفكَّر أحمدُ قائلاً: «ما أسرع ما يأتي الصَّباحُ»!

وبعد صلاة الصُّبح، تناول كالمعتاد حساء الشُّوربة، وهو يفكِّرُ ماذا سيَقُولُ اليوم؟ وخَطَرَ على باله أيضاً شيئاً

من أقوال الكبار، محدِّثاً به ما يقاربُ السَّاعة، وعند مغادرته، قال لهُ العمُّ نهاد:

ـ لم يبقَ أَمَامَك إلَّا القليل.

وفي نفس اليوم ذَهَبَ إلى الدُّكَّان وفتحهُ، وجَاءَ أحدُ القرويِّين ليأخذ حلقات حديدٍ، ليربط بها الحيوان، وخطرت للحدَّاد الشَّاب فكرةٌ حدَّث بها السَّيد نهاداً قائلاً:

ـ الإنسانُ عِنْدَما لا يتقنُ عملَه يتسبَّبُ بضررِ عشرةِ أشخاصٍ، كن متأكِّداً أنَّ العاشرَ سيكونُ هو! ولهذا يجبُ على الإنسان ألَّا يفترقَ عن الحقِّ، ويبتعدَ عن الغشِّ، وعندَها لا يخاف شيئاً، وقديماً قالوا: «يا جبلُ ما يهزَّك ريحٌ».

وانتهَى ذَلِكَ اليوم على هذا الشَّكل، وكَانَ يبدُو على السَّيد نهاد الإعجابُ بكلام الشَّاب أحمدَ.

وفي اليوم التَّالي، وبعد جلوسِهم في المكَان المعتادِ، بادرَ أحمدُ قائلاً:

ـ يا عمُّ! لكلِّ شيءٍ زمانُه ومَكَانُهُ المناسبانِ، وإذا حلَّ وقتُ تنفيذِ عملٍ ما، يجبُ ألَّا يعاندَ الإنسانُ ذَلِكَ.

وتغيَّر وجهُ السَّيدِ نهاد عندَ سماعِه هَذِهِ الكلماتِ، وظنَّ أنَّ أحمدَ يقصدُه بالكلامِ، وأنَّهُ لا يُريدُ أنْ يزوِّجَ ابنتهُ، فاستدركَ أحمدُ قائلاً:

ـ أنا لا أقصدُ شيئاً بكلامي هذا يا عمُّ.

وغادرَ المكَانَ بسرعةٍ. وفي اليوم التَّالي، عادَ أحمدُ ليتكلَّمَ عن مهنتِه قائلاً:

ـ يجبُ ألَّا تنطفئَ النَّارُ في دكَّانِ الحدَّاد، وبوجودِها الدَّائم يسْتَطِيعُ الحدَّادُ إنجازَ عمله.

وأضافَ:

ـ أعتقدُ أنَّ رؤيةَ الإنسان المستمرَّة للنَّار تذكِّرُه بالآخرَة، يا رب أَجرْنا من نارِ جهنَّمَ.

تأثرَ السَّيدُ نهادُ كثيراً بالكلام عن النَّار والآخرةِ، وأطرقَ برأسه، ثمَّ افترقَ الرَّجُلان، وهكذا مرَّ هذا اليومُ بسلامٍ.

استيقظَ أحمدُ هذا الصَّباح بصعوبةٍ، بعدَ كابوسٍ مزعجٍ أفسدَ عَلَيْهِ نومَهُ، وبَدَأَ بالتَّفكير من جديدٍ: «ماذا سأَقُولُ اليوم؟»

وعلى الإفطارِ حدثَ أنْ عضَّ لسانهُ، وهو يقضمُ الخبزَ، جَاءَتهُ فكرةٌ عن اللِّسانِ ومصائِبِهِ:

ـ اللِّسانُ قطعةُ لحمٍ، وبدونِ عظمٍ، ولكنَّها تكسرُ العظمَ، يجبُ أن يفكِّرَ الإنسانُ أربعينَ مرَّةً قبلَ أن يتكلَّمَ، ويجبُ أن يحفظَ نفسَهُ، وأحبَّاءَهُ من لسانه.

وأحسَّ الشَّاب أحمدُ أنَّهُ لم يستطعْ أن يَقُولَ ما يُريدُ، لذَلِكَ لم يكن تأثيرُ كلامِه على السَّيدِ نهاد يشبهُ الأيَّامَ الماضيةَ.

وأدركَ أحمدُ أنَّهُ بمرورِ الأيَّامِ بَدَأتْ قوَّةُ وتأثيرُ كلامهِ تتناقصُ، وبَدَأَ مخزونُ الحكمِ والأمثالِ ينفذُ، وقالَ في نفسِه: «اصبرْ يا أحمدُ! بقيَ ثلاثة أيَّام»، وبَدَأَ يفكِّرُ كَيفَ وصلَ بشقِّ الأَنْفسِ إلى هذا القدرِ، ومَازالَ لا يعرفُ كَيفَ ستكونُ النَّتيجةُ.

وبَدَأَ هذا اليوم قائلاً:

ـ قال الأقدمُونَ: أنتَ تأكلُ اللَّحمَ والأرُز، وأنا آكلُ الخبزَ والبصلَ، وكلانا نستيقظُ في الغدِ جائعَينِ!. ونهايةُ الطَّعامِ هي نفسُها مهما كَانَ، لذَلِكَ يجبُ على الإنسانِ ألَّا

يسرفَ في الطَّعامِ، وأنْ يتوسَّطَ في كلِّ شيءٍ، ويرضَى بما قسمَهُ اللهُ له.

ونظرَ أحمدُ في وجهِ السَّيدِ نهاد، وأحسَّ أنَّهُ لم يعجبْ كثيراً بكلامِهِ، وقالَ لهُ العمُّ نهاد:

ـ حسناً، لَقَد انتهَى هذا اليومُ أيضاً.

ـ لم يعجبكَ كلامي هذا اليوم؟

ـ ولمَ الكذبُ؟ لم يعجبْني يا أحمدُ.

ـ لا تُؤاخذْني يا عمُّ.. والله لم يبقَ لديَّ كلامٌ لأقولَهُ، اعذرْني أَرْجوكَ.

ـ حسناً، حسناً.

واقفاً أَمَامَ المرآةِ المتَّسخةِ، وهو يسرِّحُ شعرَه بماءٍ مخلوطٍ باللَّيمونِ، يحدِّثُ نفسَه:

ـ بقيَ يومانِ، آخر يومينِ، يا رب! أيّ شيءٍ لأتذكَّرَ، حسناً! وجدتُها اليوم.

وككلِّ يومٍ من هَذِهِ الأيَّامِ جلسَ أحمدُ، وقالَ:

ـ أنْ نرميَ الأشياءَ يمنةً ويسرةً، ودونَ أيِّ اهتمامٍ ثمَّ نشتكي ونقولُ: هذا الأمرُ لم يتمَّ، لا يجوزُ، إنَّ الإنسانَ

يجبُ أنْ يَسعى وراءَ رزقهِ، وإذا أَرادَ الإنسان شيئاً يجبُ أن يتعبَ ويعاني لأَجلِهِ.

هَذِهِ المرَّة لم يبدِ العمُّ نهاد أيَّ ردِّ فعلٍ لما قالهُ أحمدُ، فحاولَ أحمدُ أنْ يلطِّفَ الجوَّ قليلاً، فيَقُول:

ـ أليسَ كذَلِكَ يا عمُّ؟

فأجابَه:

ـ هكذا.. هكذا، اذهَبِ الآنَ، بقيَ لديكَ اليوم الأخيرُ. وهو أصعبُ من كلِّ الأيَّامِ الماضيةِ، فخذْ حذرَكَ.

وجَاءَ اليوم الأربعونَ، لم يغمضْ له جفنٌ طوالَ اللَّيلِ، وهو يفكِّرُ، ولكنَّه لم يجدْ شيئاً، وتوجَّه إلى الدُّكَّانِ، ونظرَ حولَه، علَّه يجدُ شيئاً جديداً، نظرَ إلى المطرقةِ، البلطة، إلى الموقد، إلى... إلى...

يجبُ أن يجد شيئاً، ولكن بلا نتيجةٍ، وكَانَ ماءُ البحر نفذ، وبقيتِ السَّفينَةُ على اليابسة.

استجمع قواهُ، وبَدَأَ يخطو بصعوبةٍ نحو بيتِ السَّيد نهاد. وبَدَأَ ينظرُ حوله، إلى الأشجار، إلى الحيوانات،

إلى المزروعات، يجبُ أن يجد شيئاً، يجبُ. . . ولكن بلا فائدة.

وفتحَ البابَ صاحبُ البيتِ، وككلِّ مرَّةٍ، رحَّبَ به وقادَهُ إلى الزَّاويةِ، وأخذَ يفكِّرُ: «هَلْ سأَقُولُ للسَّيِّد نهاد: «أَرْجوكَ أنْ تتخلَّى عن هذا اليَوم، وتكتفي بالتِّسعة وثلاثين؟»».

لكنَّه لم يستطعْ أنْ يقولَ شيئاً، وشعرَ باليأسِ، وقالَ في نفسه: «يبدُو أنَّ هَذِهِ هي قِسمتي. . .»، ونظرَ حولَه إلى المرمرِ الفسيفسائيِّ، وخيَّمَ على المكَانِ سكونٌ غيرُ مريحٍ، قطعَهُ صوتُ السَّيدِ نهاد:

ـ ايه يابنيَّ، بماذا ستحدِّثنا اليوم؟

ـ نعم. . نعم. . هذا. .

وفكَّرَ أنَّه بذلَ كلَّ هذا الجهدِ، ولم يستطعْ أنْ يكملَ اليوم الأخيرَ، وتندَّمَ لماذا لم يذهَبْ إلى صديقهِ الطَّحَّانِ، ولكن الآنَ لا فائدةَ من النَّدمِ، وفي اللَّحظةِ الَّتِي كادَ أن يعلنَ استسلامَه وانسحابَه، جَاءَه صوتُ الدِّيكِ، فالتفتَ نحوَ السَّيدِ نهاد سائلاً:

ـ ألمْ يضَعْ ديكُ حضرتِكم البيضَ يوماً يا عمُّ؟

العمُّ نهاد الَّذِي كَانَ ينتظرُ كلاماً جادّاً من أحمدَ، فوجئَ بالسُّؤالِ، وأصابتْه نوبةٌ من الضَّحكِ العالي.

ـ حسناً يا أحمدُ، الامتحانُ انتَهى، وتسْتَطِيعُ أن تحضرَ عائلتَكَ غداً لتطلُبوا ابنَتي.

حاولَ أحمدُ جاهداً أن يفهمَ ماذا حدثَ، وتوجَّه إلى السَّيد نهاد قائلاً له:

ـ هل أسْتَطِيعُ أنْ أوجِّهَ لكَ سؤالاً يا عمُّ؟

ماذا كنتَ تقصدُ من إحضاركَ لصهركَ لأربعين يوماً متتالية؟ ما هدفُك من ذَلِكَ؟ أنتَ يا عمُّ ـ ما شاءَ اللهُ ـ رجلٌ ذو علمٍ وخبرةٍ واسعينِ، وأنا متأكِّدٌ أنَّكَ لن تتعلَّمَ شيئاً من أقوالي.

ـ كلَّا يا أحمدُ، لَقَد تعلَّمتُ الكثيرَ منكَ.

أوَّلاً: علمتُ عن صبركَ، عن علمكَ، علمتُ منكَ كَيفَ تنظرُ للحياةِ، لا تظنَّ يا بُنيَّ أنَّني جعلتُكَ تحضرُ إلى هنا أربعينَ مرَّة بلا هدفٍ، هَلْ تَرى هَذِهِ السِّتارةَ الَّتِي هُناكَ! كَانَت خلفها ابنتي تستمعُ إلى كلِّ كلامِك، كنتُ

أرغبُ أن تتعرَّفَ إلى الرَّجلِ الَّذِي ستتزوَّجهُ، وعرفت أنَّكَ ذو قلبٍ طيِّبٍ، وذو علمٍ جيِّدٍ. ولئلَّا ندخلَ في الحرام، لم أجد غيرَ هَذِهِ الطَّريقةِ لتتعرَّفَ عليكَ بها.

ولَقد سألتُها البارحةَ عن رأيها، وأخذتُ جوابَها.

أتَمنَّى لكما السَّعادةَ يا ولَدي، وقبلَ أن أنسَى، ستكونُ هديَّتي لكما ذاكَ الدِّيكَ الَّذِي سألتَني إنْ كَانَ يبيضُ أم لا!

وعلى فكرةٍ، أوَّلُ بيضةٍ هي لي، هذا شَرطي الوحيدُ!.

# طَرِيقُ العَوْدَةِ

الوقتُ منتصفُ اللَّيلِ، ولم يبقَ إلَّا الكلابُ في الشَّارع. وأَمَامَ الحانةِ يُوجَدُ رجلٌ نائمٌ على الأرضِ، فاقدٌ الوعيَ، وذَلِكَ لإفراطه في الشُّرب لدرجةٍ أنَّ الكلابَ تمرُّ من جانبه ولا تكترثُ به.

بزغَ الفجرُ، وبَدَأَتْ أشعةُ الشَّمسِ تتسلَّلُ إلى المكَانِ، واستفاقَ على ألمٍ شديدٍ في ظهرِه، بِسَببِ نومهِ على الأرضِ، حاولَ النُّهوضَ، ولكنَّهُ شعرَ بدوارٍ ثمَّ سقطَ على الأرض مرَّةً أُخْرَى، ثمَّ عادَ واستندَ إلى الحائط، وهمَّ بالنُّهوض، وقال محدِّثاً نفسهُ: «أليسَ من المؤسفِ أن لا أجدَ أحداً يشفقُ عليَّ، ويريحُني من هذا الألم الَّذِي أشعرُ به؟!» وفكَّرَ في زوجتهِ، ولم يتوقَّع أنَّها بحثَت عَنه، أو انتابَها قلقٌ بشَأنه، حتَّى أولاده لم يتوقَّع أنَّهم ينتظرونَ عودتَهُ!!.

تذكَّرَ كَيفَ أنَّه في الأيَّام الماضية ضربَها بالعصا على وجهها ويديها، فاضطرَّتِ المسكينةُ أن تلتزمَ البيتَ لمدَّة ثلاثة أسابيعَ، دمدمَ قائلاً:

ـ طبعاً هذا عقابُ من يقفُ في وجهي، ويعارضُ أفكاري!.

وفجأةً غيَّرَ فكرَهُ، وقالَ:

ـ وإنها لَيست حياة تِلْكَ الَّتِي تعيشُها زوجَتي، كَانَت تُعاني من والدها السِّكيرِ، ثمَّ تزوَّجتُها، وهي تُعاني معي الآنَ، أسَفي عليكِ يا زوجتي، فحياتُكِ معاناةٌ مَعَ الشَّرابِ والزُّجاجةِ، في حين أعترفُ كَم هي زوجةٌ جيِّدةٌ، مدبِّرةٌ غيرُ مبذِّرةٍ للنُّقودِ، نظيفةٌ ومرتَّبةٌ، وفي الأيَّامِ الماضيةِ عِنْدَما أخذتُ لها مترينِ من البطانةِ، أذكرُ كَم كَانَت سعيدةً.

ثمَّ تذكَّرَ «لا، لم تكنْ بطانةً، بل كَانَت مترَين من القماشِ»، وزادتْ سعادتُه عِنْدَما ذكَّرَ نفسَهُ بهذا.

كَانَ جائعاً، مرتدياً ملابس متَّسخَةً، يفكِّر: «هَلْ من المعقولِ أن ينامَ الرَّجلُ بملابسِه أَمَامَ الحانةِ؟» وكَانَ هُناكَ

آثارُ قيءٍ على أطرافِ معطفِه، وفتق كبير على كتفِ المعطفِ، برزتْ منه الحشوةُ إلى الخارجِ، وعلى قميصهِ بقعةٌ من الدَّسمِ، وقميصُه خارجٌ من البنطالِ، شعرُهُ أشعثُ كَأنَّ عاصفَةً قويَّةً عبثَت به، تنبعثُ منه رائحةُ الدُّخانِ، لدرجةٍ انزعجَ منها هو أيضاً.

فكَّرَ بأنَّه بهَذِهِ الهيئةِ لن يسْتَطِيعَ الدُّخولَ إلى المطعمِ ليتناولَ طبقاً من الشُّوربة، وأيضاً تذكَّرَ أنَّ رصيدَهُ في البنكِ يكادُ أن ينفذَ.

دخلَ إلى المطعمِ، وقدَّمَ النَّادلُ طبقَ الحساءِ، نظرَ أَمَامَهُ لم يفهمْ لمَ وضعَ لهُ النَّادلُ ملعقتينِ، ثمَّ حاولَ جاهداً الإمساكَ بها، فوقعتْ على الأرضِ، ثمَّ تناولَ الثَّانيةَ، وبصعوبةٍ بالغةٍ أوصلَ أوَّلَ ملعقةٍ من الحساءِ إلى فمهِ، نظرَ إلى هيئتهِ، إلى معطفهِ، وإلى قميصهِ، وإلى بنطالهِ، القذارةِ الَّتِي على وجههِ ويديهِ، ثمّ انفجرَ ضاحكاً، وفجأةً انقلبتْ ضحكتُه إلى نوبةٍ من البكاءِ، أخذَ يَبكي كالطِّفلِ الصَّغيرِ على هَذِهِ الحالةِ، وأخذَ يُتمتمُ: «ألا لعنةُ اللهِ على الشَّيطانِ».

أدركَ وهو خارجٌ من المطعمِ أنَّه أعطَى آخرَ ما يملكُ ثمناً لطبقِ الحساءِ، وعندَ خروجهِ إلى الشَّارع بَدَأَ يصحُو من سكرهِ شيئاً فشيئاً، مرَّت أَمَامَه عربةُ الخبزِ الطَّازجِ، استطاعتْ رائحةُ الخبزِ القويَّةِ أن تزيلَ آخرَ آثارِ الشَّرابِ.

إنَّه عاملُ النَّظافةِ السَّيدُ حسين، يضعُ على رأسِه قبعةً خفيفةً، وفي يدِه مكنسةٌ خشنةٌ، وفي يدِه الأُخْرَى مِعْوَلٌ قديمٌ، وهو يعملُ في هذا الحيِّ مُنْذُ عشرين سنة، مردِّداً كلماتِه المعهودَةَ:

ـ إذا أمسكتَ بوردةٍ حمراءَ، فلا بدَّ أن تلتقيَ بمَن يأخذُها، وإذا أردتَ أن تبكيَ فلا بدَّ أن تجدَ مكَاناً لكَ.

ممسكاً بقطعةٍ كهربائيَّةٍ صدئةٍ يتأمَّلُها طويلاً، ثمَّ يرمِيها حزيناً، إنَّه لا يسْتَطِيعُ أن يستعملَها.

حسينٌ عاملُ النَّظافةِ ينظِّفُ أَمَامَ بيوتِ آلافِ النَّاسِ، وفي إحدَى الصَّباحات، سمعَ ضجَّةً شديدةً، فظنَّ في نفسهِ أنَّ هُناكَ من يوزِّعُ شيئاً للنَّاسِ.

اقتربَ من مصدرِ الصَّوتِ، ولكنَّه لم يجدْ ما كَانَ يتوقَّعُه، ووجدَ حوالي عشرين شخصاً، أكثرهُم من كبارِ

السِّنِّ، قد تجمَّعوا أَمَامَ منزلٍ، وتساءلَ: «أتُراهم ينتظرونَ استلامَ رواتِبهم؟».

ونظرَ، ولم يكنْ في المكَانِ مصرفٌ، أتُراهُ مكَانٌ لبيعِ الخبزِ؟ لا، ليسَ مشفَى، ولا مدرسةً، ووقفَ معَهم منتظراً مَعَ المنتَظرينَ!

ولم يَخطرْ ببالهِ أن يسألَ: لماذا تنتظرونَ؟ وقفَ معَهم منتظراً، ودهشَ عِنْدَما رأَى صديقَه سالماً أيضاً، ولكنَّهُما لم يتبَادلا أيَّ كلمةٍ!!

وفجأةً، فتحَ البابَ، وبَدَأَ النَّاسُ يدخلونَ بنظامٍ إلى الدَّاخلِ، ودخلَ معهُم، وفكَّرَ بأنَّ الَّذِينَ دَخلوا أولاً سيفهمونَ ما يحدثُ قبلَ الَّذِينَ دورهم بالأخيرِ. فإن كَانَ شيئاً غيرَ مناسبٍ سوفَ ينسحبونَ، وأراحَهُم هذا التَّفكيرُ.

دَخلوا إلى غرفةٍ كبيرةٍ فيها خزانةُ أوراقٍ كبيرةٌ، وخلفَ الطَّاولةِ يجلسُ موظَّفٌ، يسألُ بعضَ الأسئلةِ، ويدوِّنُ الإجاباتِ على الأوراقِ أَمَامَه، وجَاءَ دورُ سالمٍ، ونظرَ ببَراءةٍ إلى الموظَّفِ، وسألَهُ الموظَّفُ فجأةً:

ـ سالم أورتا كشي! كَم شخصاً سيذهَبُ؟

ـ إلى أَيْنَ سيِّدي؟

رفعَ الموظَّفُ رأسَهُ متأمِّلاً سالماً، نظرَ إلى ثيابِه المتَّسخةِ، وشعرِه المنفوشِ، ولم يخفِ دهشتَه، سألَه:

ـ أنتَ لماذا جئتَ إلى هنا؟

ـ أنا؟

ـ نعم، لماذا جئتَ؟

ـ واللهِ صدِّقني، حتَّى أنا الآنَ لا أعرفُ لماذا جئتُ! نظرتُ رأيتُهُم ينتظرونَ فانتظرتُ معَهم.

ـ ماذا؟

ـ مثل ما سمعتَ!

ـ رجَاءً يا أخي، اذهَبْ من أَمَامِي. أنا لديَّ ما يَكفيني، لم يبقَ لي إلَّا أن أنشغلَ بالسُّكارى أمثالكَ.

ـ أنتَ ماذا تفعلُ هنا؟

ـ نُسجِّلُ أسماءَ الَّذِين يُريدُونَ الذَّهابَ إلى الحجِّ.

ـ حقّاً ما تقولُ؟ إذاً سجِّلِ اسمي أنا أيضاً.

ـ هَلْ أنتَ متأكِّدٌ؟

ـ نعم.

ـ اذهَبْ من هنا أَرْجوكَ، أنتَ؟! أنتَ ستذَهبُ إلى الحجِّ؟!

ـ يا إلهي... ماذا ستخسَرُ؟ اكتُبِ اسمي يا سيِّدي.

ـ أَلهِمْني الصَّبرَ يا رب، من أَيْنَ لكَ بالنُّقودِ أجرة الحجِّ؟!

ـ وما شأنُكَ أنتَ؟ هذا شأني أنا! أنتَ فَقَط اكتُب اسمي.

ـ حسناً، أعطِني بطاقتَكَ.

وبَدَأَ الموظَّفُ بكتابةِ المعلوماتِ ثمَّ قالَ:

ـ أَعطِني نقوداً من أجلِ إتمامِ الطَّلَبِ.

ـ كَم؟

ـ خمس ليراتٍ.

فتَّشَ سالمٌ في جيبهِ، وتذكَّر أنَّ آخرَ نقودهِ صرَفها ثمنَ طبقِ الحساءِ، فاستدارَ إلى الموظَّفِ قائلاً:

ـ أنتَ سجِّل اسمي الآنَ، وفوراً سوفَ أذهَبُ، وأحضرُ لكَ النُّقودَ.

خرجَ مسرعاً من المكَانِ، وفكَّرَ بأنَ يذهَبَ إلى صديقهِ الكهربائيِّ، ذَهَبَ إليهِ وقالَ:

ـ غافر!... أعطني خمسَ ليراتٍ فوراً.

نظرَ غافرٌ إلى سالم مندَهشاً، ولم يفهمْ مرادَهُ من الطَّلَبِ. وفي هذا الوقتِ المبكِّرِ، وتساءلَ:

ـ خيراً إنْ شَاءَ اللهُ؟

ـ خيراً، خيراً بإذنِ اللهِ، الآنَ أعطني خمسَ ليراتٍ.

ـ ماذا حدثَ؟ هَلْ أصدقاؤُكَ في الحانةِ لا يقرضُونكَ، ولا يمهلُونكَ من أجلِ خمس ليراتٍ؟

ـ الأمرُ ليسَ كما تظنُّ يا غافر، أمرٌ فيه خيرٌ!

ـ هيّا قلْ لي، ما هو هذا الأمرُ؟

ـ سأذهَبُ إلى الحجِّ يا غافرُ!

ـ ماذا؟!

ـ ماذا تَعني «ماذا»؟

ـ أنتَ.. والحج..؟ أَرْجوكَ لا تُضحِكني، نَحنُ نعرفُ (البئرَ وغطاءَهُ).

وأطلقَ ضحكةً عاليةً، ثمَّ قطعَ ضحكَتهُ، وقالَ:

ـ اسمعوا أيُّها النَّاسُ: شيءٌ لا يصدَّقُ، سالمٌ سيذهَبُ إلى الحجِّ.

وتابعَ ضحكتَهُ:

ـ أيُّ حجٍّ يا سالم؟! انظرْ إلى هيئتكَ أولاً، ثمَّ بعدَ ذَلِكَ تكلَّم عن الحجِّ!

انزعجَ سالم كثيراً من استهزاءِ صديقِه، قطَّبَ جبينهُ، واتَّجَه نحوَ البابِ، يُريدُ الخروجَ، فأسرعَ إليه صديقُه، وطيَّبَ خاطرَهُ قائلاً:

ـ يا حاجُّ سالم! إلى أَيْنَ؟

ـ سأحاولُ الحصولَ على النُّقودِ من شخصٍ آخرَ، دَيْناً، سأعتبرُهُ دَيْناً.

ـ اجلسْ يا رجُلُ، سأُعطيكَ ما تطلبُ.

وأخذَ سالم النُّقودَ، وشكرَ صديقَهُ قائلاً:

ـ شكراً لك يا صديقي، سأردُّهم لكَ بعدَ يومين.

ـ انتظرْ يا سالم، قبلَ أن تذهَبَ أريدُكَ أن تعدَني، أنَّ هَذِهِ النُّقودَ لن تصرفَها على الشَّرابِ، أقسمُ باللهِ العظيمِ إن سمعتُ أنَّكَ فعلتَ هذا لن تَرى وجهي بعدَ الآنَ.

ـ اسمَعوا يا ناسُ، أنا أتكلَّمُ عن الحجِّ، وهو مَازالَ يتكلَّمُ عن الشَّرابِ.

وهزَّ رأسَهُ يمنةً ويسرةً، وهو يغادرُ المكَانَ. وعادَ مسرعاً إلى بناءِ الإفتاءِ الَّذِي سجَّل اسمَهُ فيه، ووضعَ النُّقودَ على الطَّاولةِ أَمَامَ الموظَّفِ، والتفتَ ليخرجَ، ولكنَّ الموظَّفَ بادرَهُ بالقولِ:

ـ بعدَ شهرٍ ستُجرَى قرعةٌ، إن خرجَ اسمُكَ بالقرعةِ ستأتي لتسدِّدَ تكاليفَ رحلةِ الحجِّ، وبعدَ خمسة أشهر يكونُ السَّفرُ.

حاولَ جاهداً أن يستوعبَ ما قالهُ الموظَّفُ كلمةً كلمةً، ثمَّ تابعَ الموظَّفُ قائلاً:

ـ إن لم يخرج اسمُكَ لن تسْتَطِيعَ أن تستعيدَ الخمس ليراتٍ، ليكن في علمكَ.

ـ حسناً.. حسناً.

عادَ إلى البيتِ، وبَيْنَمَا هو يفتحُ البابَ، وإذا بابنتهِ الكبيرةِ تُرِيْدُ أن تخرجَ من البيتِ، ذاهبةً إلى المدرسةِ، ولمَّا رأتهُ ابنتُهُ على هَذِهِ الهيئةِ المزريةِ، هرولتْ مسرعةً

إلى الخارجِ، دونَ أن تنبسَ ببنتِ شفةٍ، وقد شعرتْ بالألمِ الشَّديدِ على الوضعِ الَّذِي وصلَ إليهِ أبوها.

عِنْدَما رأتْهُ زوجتُهُ، هلَّلتْ قائلةً:

ـ أهلاً وسهلاً يا زَوجي العزيز.

ولم تزدْ على هَذا.

كَانَت زوجتُهُ امرأةً متَّزنةً، هادئةً، متديِّنةً، صائمةً، مصلِّيةً، وقد حاولتْ أن تجعلَ زوجَها يصلِّي، ولكن جهودَها ذَهَبَتْ هباءً.

ويتذكَّرُ كَيفَ أنَّهُ استيقظَ ذاتَ ليلةٍ على صوتِ بكاءٍ خافِتٍ، يأتي من الغرفةِ المجاورةِ. فلمَّا ذَهَبَ إلى الغرفةِ الثَّانيةِ رأَى زوجتهُ جالسةً على السّجادةِ رافعةً يديها إلى السَّماءِ تتضرَّعُ إلى اللهِ باكيةً، وهي تدعو قائلةً:

ـ يا رب.. اهدِ لي زوجي، وخلِّصْهُ من هذا البلاءِ الَّذِي هو فيه.

تأثَّر كثيراً من هذا الَّذِي رآهُ، وعاهدَ نفسهُ ألَّا يعودَ للشَّرابِ، ولكنَّهُ عِنْدَما استيقظَ في الصَّباح، وكَأنَّ شيئاً لم يكن، وعادَ إلى عادته القديمةِ.

تذكَّرَ كلَّ هذا، ومَازالَ واقفاً عند البابِ، ثمَّ تنَحنحَ قائلاً لزوجتهِ، وهو يدخلُ البيتَ:

ـ عزيزتي: أريدُ أن...

وتحشرجَ صوتُهُ، وامتلأتْ عيناهُ بالدُّموعِ، ثمَّ استدركَ قائلاً:

ـ سأقولُ لك شيئاً، شفيقةُ.

ـ تفضَّل يا زَوجي العَزيز.

ـ سأذهَبُ إلى الحجِّ.

ـ ماذا؟

ـ ما هي مشكلتُكم مَعَ هَذِهِ الـ «ماذا»؟ الجميعُ يَقُولُ لي هَذِهِ الكلمةَ؟!.

ـ هَلْ أنتَ جادٌّ فيما تقولُهُ؟

ـ نعم، كما سمعتِ: أنا ذاهبٌ إلى الحجِّ إنْ شَاءَ اللهُ.

لم تصدِّقْ ما قالَهُ زوجُها، وبقيتْ حائرةً مذهولةً ممَّا سمعَتهُ، وفجأةً اختفتْ كلُّ ملامحِ الحزنِ من وجهِها، وحلَّت مَكَانَها ابتسامةٌ عريضةٌ، أضاءَت وجهَها، وبالكادِ

استطاعَت أن تجلسَ على أقربِ مقعدٍ، واستمرَّت بالتَّحديقِ في زوجها، لا تعرفُ ماذا تقولُ.

مضى أكثر من شهرٍ، وسمعَ النَّاسَ يَقُولونَ أنَّ الأسماءَ المرشَّحةَ للذَّهاب للحجِّ معلقةٌ في دار الإفتاءِ.

أسرعَ إلى هُناكَ، ويكادُ قلبُه يخرجُ من صدرهِ من شدَّة التَّوتُّر، وفكَّر في الطَّريق كَيفَ مرَّت هَذِهِ المدَّةُ، لم يضع قطرةَ شرابٍ في فمه مُنْذُ ذَلِكَ اليوم، واهتمَّ بتجارته، وشيئاً فشيئاً تحسَّنت أحوالُه، واستطاعَ تسديدَ كلِّ ديونه، وبَدَأَ يدَّخرُ لنفقات رحلة الحجِّ.

أخيراً وصلَ إلى المكَان، النَّاسُ مجتمعُونَ، بصعوبةٍ استطاعَ أن يصلَ إلى اللَّوحة، وبَدَأَ يهجِّي الأسماءَ حرفاً حرفاً، لأنَّهُ لا يعرفُ القراءةَ والكتابةَ جيِّداً، وكادَ يصلُ إلى نهايةِ الصَّفحةِ، ولم يجدِ اسمَهُ، لم يصدِّقْ، وكادَ أن يفقدَ الأملَ، ولكنَّهُ قالَ في نفسه: «مستحيلٌ، هذا يعني أنَّني سأنتظرُ للسَّنة القادمةِ. هذا مستحيلٌ، لن أسْتَطِيعَ الانتظارَ».

عادَ واقتربَ من لوحة الأسماءِ، وبَدَأَ يقرأُ بصوتٍ عالٍ:

ـ فاضل اجونان.. فاطمة اجونان... مراد

ارابجي.. بشرى ارابجي... وهكذا اسماً اسماً، وكادَ يصلُ إلى آخرِ عشرة أسماء.. مصطفى كايان.. سارة كايان.. ايدن دمرجي.. عائشة دمرجي.. سالم اورتكاج.. سالم.. سالم!! هذا هو اسمي، يا إلهي.. أخيراً الحمدُ لكَ يا رب.

ولم يتمالَك نفسَهُ من شدَّة الفرح، فأخذَ يقفزُ، ويرقصُ فرحاً، ولكي يتأكَّد من أنَّ ما قرأهُ لم يكن وهماً أو خطأً، طَلَبَ من أحدِ الموجودينَ أن يقرأَهُ له:

ـ سالم اورتكاج.

ـ أنتَ متأكِّدٌ، أليسَ كذَلِكَ؟

ـ لا حولَ ولا قوةَ إلا بالله، سالم اورتكاج، متأكِّدٌ متأكِّدٌ.

كَانَت سعادةُ سالمٍ لا تقدَّرُ بثمنٍ، ولو أنَّهُ ربحَ الجائزةَ الكبرى باليانصيب لما فرحَ بهذا القدرِ، وفكَّرَ أن يذهَبَ إلى البيت ليزفَّ البشرى إلى زوجته، لأنَّه يعلمُ أنَّ هذا سيسعدُها كثيراً.

ـ شفيقة.. شفيقة، أنا ذاهبٌ إلى الحجِّ هَذِهِ السَّنة.

وعانقَها والدُّموعُ تبلِّلُ وجنتيهِ من الفرحِ.

في الحَقيقَةِ، لا يدري لماذا فرحَ كثيراً، ومن أَيْنَ جَاءَت كلُّ هَذِهِ المشاعرِ، ولماذا يشعرُ بكلِّ هَذِهِ السعادةِ، فكَّرَ وقالَ في نفسه: «سبحانَ مغيِّرِ الأحوالِ! كَيفَ ابتدأَ يومي ذاكَ، وكيفَ انتهى؟ بَدَأَ باستيقاظي من نَومي أَمَامَ الحانةِ وأنا مخمورٌ، وانتهَى بتسجيلِ اسمِي في قائمةِ الحجِّ، أشكرُكَ يا رب».

هاقد اقتربَ موعدُ الرِّحلةِ، وهو كالأطفالِ، لا يسْتَطِيعُ أن يهدِّئَ أو يخفِّفَ من توتُّره وشوقِهِ، تأكَّدَ من أنه أنجزَ كلَّ المعاملاتِ المطلوبةِ للحجِّ، وقد سدَّدَ كلَّ المصاريفِ المطلوبةِ.

وكَانَ رمضانُ تِلْكَ السَّنة مختلفاً عن كلِّ الأشهرِ الَّتِي مضَت، التزمَ بالذَّهابِ إلى المسجدِ، ولم تَفُتْهُ صلاةُ التَّراويح، وكَانَ يقضي ساعاتٍ طويلةً في المسجدِ، يقرأُ القرآنَ الكريمَ، ويدعو ويستغفرُ اللهَ، وحاولَ أن يمضيَ وقتاً أطولَ مَعَ أولادِه، مقترباً من مشاكلِهم، مشاركاً لهمومِهم.

عندَ السّحورِ كَانَ أوَّلَ المستيقظينَ، يبَدَأُ بتحضيرِ طعامِ

السُّحورِ، ثمَّ يبدَأُ بإيقاظِ الأولادِ، ويبدَأُ بإيقاظِ ابنتهِ الكبيرةِ بكلِّ حنانٍ وحبٍّ، وهكذا ضِمْن هَذِهِ الأجواءِ مرَّ رمضانُ وجَاءَ العيدُ.

ومرَّتِ الأيَّامُ، وجَاءَ موعدُ السَّفرِ، ولم يتوقَّفْ عنِ التَّفكيرِ وهو يحزمُ حقائبَه بأنَّه سَيرى الكعبةَ المشرَّفةَ!

سيزورُ الأماكنَ الَّتِي كَانَ يعيشُ فيها أفضلُ الخلقِ، رسولُنا الكريمُ عَلَيْهِ أفضلُ الصَّلاةِ والسَّلامِ، وأَصْبحَ كلُّ شيءٍ جاهزاً، وتوجَّه نحوَ الحافلاتِ التِي ستقلُّهم إلى المطارِ، كَانَتْ عبارةً عن ثلاثِ حافلاتٍ كبيرةٍ، متوقِّفة في زاويةِ الشَّارعِ يرفرفُ عَلَيْها علمُ بلادِه.

كَانَ أهلُ الحيِّ مجتمعينَ يودِّعونَ المغادرينَ من أهلِ الحيِّ إلى الحجِّ، وهم يُلوِّحونَ بأَيديهم للمتوجِّهينَ إلى الحافلاتِ محمِّلين سلامَهم ودعاءَهم، ومَازالَوا غيرَ مصدِّقينَ أنَّ سالماً حقّاً ضمن الذَّاهبينَ إلى الحج.

سكبَ الجيرانُ الماءَ خلفَهُ، كعادتِهم في توديعِ المسافرينَ، قائلين:

ـ لا تنسَ أن تسلِّمَ على النَّبي صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلَّم.

ولا تنسَ الدُّعاءَ لنا، وطَلَبَ الجيرانُ منه إحضارَ ماءِ زمزمَ والتَّمرِ، من الأراضي المقدَّسةِ.

لوَّحَ سالمٌ بيديهِ مودِّعاً قائلاً:

ـ سامِحوني أيُّها الأعزَّاءُ إنْ كنتُ أخطأتُ بحقِّكم.

ارتجفَ صوتُه، وهو يَقُول ذَلِكَ، وجالَ بنظره بالمكَانِ، وكَأَنَّهُ يطلبُ السَّماحَ من كلِّ زاويةٍ في الحيِّ، كَانَ قد ارتكبَ أخطاء فيها وهو مخمورٌ.

وغادرتِ الحافلاتُ الحيَّ، سالكةً الطَّريقَ نفسَه الَّذِي كَانَ يسلكُهُ سالمٌ وهو مخمورٌ. وَوَصلوا إلى المطار، وكَانَ مزدحماً بالحجَّاجِ، وهم يلبسونَ الأبيضَ كالحمامِ الأبيضِ.

أمَّا سالم كَأنَّ قلبهُ لم يصدِّقْ، متلفِّتاً حولهُ كَأَنَّهُ حمامةٌ وقعتْ في يد صيادٍ، ترتسمُ على وجههِ ابتسامةٌ، وهو ممسكٌ بيد زوجتهِ، ولم يصدِّقْ بأنَّهُ سيزورُ البلادَ المقدَّسةَ، وقبرَ الرَّسولِ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ.

وابتسمَ لزوجتهِ قائلاً:

ـ كنتُ أرغبُ كثيراً أن تَكوني معي، ولكن لا تنسي وصيَّتي.

ـ أعرفُ يا سالم.

ـ الأولادُ أمانةٌ عندَكِ، وفي الحَقيقَةِ هم دائماً كَانُوا أمانةً عندكِ.

ـ حسناً يا سالم، لا تقلقْ.

ـ وإن كَانَ لكِ حاجةٌ لشيءٍ اتَّصلي بأقاربي، لنْ يتأخَّروا إنْ شَاءَ اللهُ.

ـ لا تشغلْ بالَكَ بنا.

ـ تكلَّمتُ مَعَ البقَّالِ، خذي كلَّ ما تحتاجينَ منه، وسأدفعُ له عِنْدَما أعودُ إنْ شَاءَ اللهُ. ومن أجلِ عيدِ الأضحَى، أوصيتُ أخي يساعدُكم في موضوعِ الأضحيةِ، وقد أعطيتُه ثمنَها، وزِّعي اللَّحمَ على الفقراءِ، ولا تنسي عيديَّةَ الأولادِ.

ـ حسناً! سأهتمُّ بهذا.

ـ نَحنُ ذاهبونَ، ولا ندري إن قُسمَ لنا العودةُ، سامِحيني يا زوجتي العزيزة...

ولم يستطعْ إكمالَ الكلامِ، ووقفتِ الكلماتُ في حنجرتهِ، وكَانَ هُناكَ كلامٌ كثيرٌ يُريدُ أنْ يَقُولهُ لزوجتهِ،

وفجأةً وجدَ أنَّ كلَّ الكلام لا يسْتَطِيعُ التَّعبيرَ عمَّا في نفسِه، فعانقَ زوجتَهُ، وبكَى سالمٌ طويلاً، وبصعوبةٍ قالَ:

ـ أَرْجوكِ أن تسامِحيني، جعلتُكِ تعانينَ طويلاً، سامِحيني.

وبِسَببِ دموعِه قالتْ له زوجتُهُ:

ـ في الحَقيقَةِ، أنتَ سامحني يا سالم، أنا سامحْتُكَ.

هاهي الكعبةُ ترتدي ثوبَها الأسودَ المتألِّقَ، وفي صحنِ الطَّوافِ، وفي زاويةٍ منه هُناكَ رجلٌ يصلِّي قائماً، وقد تورَّمتْ قدماهُ من الوقوفِ، مبتهلاً لربِّهِ، عيناهُ مليئتانِ بالدُّموعِ مستغفراً ربَّه ومتذلِّلاً له.

ومن يراهُ يَقُولُ:

ـ ما شاءَ اللهُ! هذا الرَّجلُ قائمٌ حتَّى الصَّباح، داعٍ لربِّه ومستغفرٌ إيَّاهُ.

يقضي وقتَهُ حتَّى الصَّباح قائماً، عسى يغفرُ له ما قضاهُ في ماضيهِ.

وكَأنَّ قيامَهُ حتَّى الصَّباح يسْتَطِيعُ أن يرويَ ظمأَهُ للكعبةِ، ويشعر وكَأَنَّهُ وُلدَ من جديدٍ.

هَذِهِ اللَّحظاتُ تعيدُه لفطرتهِ الحقيقيَّةِ، وفجرِ النُّور، فَيحاولُ تعويضَ ما فاتَهُ من سنين عمرهِ الضَّائعةِ في رضوانٍ لربِّه.

وبعدَ الآنَ لم يعدْ هذا الشَّخصُ اسمه سالم، بل «الحاجّ سالم».

# طُورُوس

الذِّكْرى الغاليةُ لجدِّي الحبيبِ «عَبْد اللهِ كراكوش».

ـ أسرعْ يا ولدي، وضَعِ القدرَ النُّحاسيَّ على الحمارِ، فقدْ تأخَّرْنا، والجميعُ سَبقَنا.

كلّ صيفٍ وكَأَنَّهُ موسمُ هجرةٍ حقيقيٍّ، يذهَبُ الجميعُ هرباً من الحرِّ إلى المصيفِ «جوكوروفا»، وفي كلِّ صيفٍ تتكرَّرُ مشكلةُ القطنِ، سواءٌ في المدينةِ أو القريةِ، وذَلِكَ بِسَببِ تقلُّباتِ الطَّقسِ.

عِنْدَما تصبحُ الشَّمسُ في كبدِ السَّماءِ، تبدو الأرضُ متشقِّقةً قاسيةً حتَّى على ضربةِ الفأسِ، ومن شدَّة الحرِّ، وبنزولِ الأمطارِ تشعرُ بغليانِ الماءِ، وذَلِكَ في فضاء «أضنة»، والمطرُ هو ضيفٌ يحبُّهُ الجميعُ، ويسعدونَ بقدومِه.

ولكنَّ نزولَهُ في غيرِ موسمِه يؤذي كلَّ المزروعاتِ،

وفي الرَّبيعِ تتلوَّنُ الحقولُ بألوانٍ زاهيةٍ، بَيْنَمَا في الصَّيفِ تغدُو بيضاءَ كثوبِ العروسِ، يؤذيها نزولُ المطرِ، وتزولُ سعادةُ الفلاحينَ بِسَببِ تعفُّنِ القُطنِ، وكَأَنَّهُم يُعلنونَ الحِدادَ على موسمِهم.

والقطنُ يحتاجُ لعنايةٍ فائقةٍ، وعندَ نزولِ أوَّلِ المطرِ يذهَبُ هذا الجهدُ هباءً، فهو يحتاجُ لعنايةٍ كالأطفالِ، وتؤذيهِ الأمطارُ، وهذا ما حَصَلَ في قرية «تركمان» في هذا الصَّيف، وكلُّ هذا الجهدِ والعملِ ذَهَبَ أدراجَ الرِّياحِ عِنْدَما نزلَ المطرُ.

كَانَ أحمدُ ـ وهو أصغرُ أولادِ عَبْدِ اللهِ ـ يمسكُ في يدهِ قطعةَ مشمَّعٍ، محاولاً حمايةَ المحصولِ من المطرِ.

ـ ولكن كَيفَ سنحمِي كلَّ هذا الحقلِ، فمساحتُه دونمانِ والقطعةُ طولُها مترانِ؟!

فكَّرَ عَبْدُ اللهِ، وقالَ لابنه:

ـ تعالَ يا بُنيَّ، لا تشغلْ بالكَ بهذا، لابدَّ أنَّ هُناكَ «خيراً يردُّه اللهُ لنا».

وبالرَّغم من كلامِ أبيهِ تابعَ جهدَهُ، بمحاولةِ تغطيةِ الحقلِ، بَيْنَمَا قالَ أحدُ الجيرانِ:

ـ يا سيِّد عبد الله: لو زرعتَ قمحاً لم يَحْصُلْ ما حَصَلَ.

ـ اللهُ أعلمُ، ولم يعدْ لدينا حيلةٌ الآنَ.

ـ ما شاءَ اللهُ، كَم أنتَ مرتاحُ البالِ! لا تهتمُّ، ولا يرفُّ لكَ جفنٌ.

ـ أنا متوكِّلٌ على اللهِ، وكلُّ ما يَأتيني منه فهوَ خيرٌ، وراضٍ به.

ـ كلامٌ جميلٌ، معكَ حقٌّ، ولكن مِن أَيْنَ تأكلونَ وتشربونَ؟

ـ رحمةُ اللهِ وسعتْ كلَّ شيءٍ، واللهُ لا ينسَى أحداً، فلا يُغلَقُ بابٌ، إلا ويفتحُ اللهُ بدلهُ مئةَ بابٍ.

جَاءَ فصلُ الخريفِ، وجَاءَ موسمُ قطافِ العنبِ، وفي هذا الفصلِ يصنعونَ الدِّبسَ، ويعصرونَ العنبَ، ويجفِّفونهُ كرقائقَ ويغلِّفونَهُ ويبيعونَهُ. ويعتبرُ العنبُ موسماً يعوِّضُ عنِ القطنِ.

تجهَّزتْ كلُّ القريةِ للذَّهابِ في الصَّباح الباكرِ،

وحُملتْ أوعيةُ النُّحاسِ الكبيرةِ على الدَّوابِّ، وصنعَ النِّساءُ كمِّياتٍ كبيرةً من الخبزِ، وبَدَأَ المنظرُ في القريةِ وكَأَنَّهُ رحلةُ هجرةٍ حقيقيَّةٍ.

بعدَ أن صلَّى الرَّجالُ الفجرَ في المسجدِ، بَدَأَ الجميعُ بالتَّجهيزِ للانطلاقِ، وبدتِ القريةُ مثل قافلةٍ طويلةٍ، الأحصنةُ والأبقارُ، والبغالُ، وكَانَ الأطفالُ هم مصدرُ سعادةِ هَذِهِ القافلةِ طبعاً، كَانوا في البِدَايَة مَازالَوا يشعرونَ بالنُّعاسِ، غير مرتاحينَ. يفركونَ أعينَهم يحاولونَ الاستيقاظَ، ولكنَّ النَّومَ يغلبُهم، نصف مستيقظينَ، نصف نائمينَ، وبعدَ فترةٍ تراهُم وقدِ استيقَظوا تماماً، وبدوا فرحينَ يوزِّعونَ ابتساماتِهم على الجميعِ، كما توزِّعُ الشَّمسُ أشعتَها على الدُّنيا.

وبَدَأَ طريقُ المصيفِ محافظاً على لونهِ الأخضرِ، وبَدَأَتْ رحلتُنا بتلوُّنٍ من الأصفرِ إلى الأخضرِ، كَأَنَّهُ مصرٌّ على الحفاظِ على اللَّونِ الأخضرِ.

ويسيرُ وراءَ عائلةِ السَّيدِ عَبْدِ اللهِ، حصانٌ وحمارانِ، ومن خلفِهما بقرةٌ وعجلٌ، وكَانوا آخرَ مَن يصعدُ إلى جبلِ «آيلة».

وباقترابِ عيدِ الأضحى، فكَّر لو أنَّهُ خرجَ بعدَ العيدِ، لكَانَ أفضلَ لهم، وباقترابِ موسمِ العنبِ، كَانوا مجبَرين على الخروجِ. كَانَ الأطفالُ سعيدينَ كَأَنَّهُم خَرجوا من بيضةٍ.

وكَانَ كلبُ السَّيدِ عبدِ اللهِ «طوروس»، وقد وجدهُ مصاباً في قارعةِ الطَّريقِ، فاعتَنى به وأَصْبحَ يحبُّه أكثرَ من كلِّ حيواناتِه، وكَانَ له اسمٌ يُنادَى به عكس بقيَّةِ الحيواناتِ، والجميعُ يعرفُه بهذا الاسمِ، يعتبرُه كأحدِ أفرادِ العائلةِ، رغمَ أنَّهُ لا يستفيدُ منه شيئاً، ليسَ كبقرةٍ يستفيدُ من حَليبها، أو كَحمارٍ يحملُ عَلَيْهِ، لكنَّ «طوروس» ممَّن رافقَ عائلةَ السَّيدِ عَبْدِ اللهِ، وكَأَنَّهُ يطيرُ بالهواءِ من شدَّةِ سعادتهِ، وهو يسابقُ القافلةَ، فإذا تأَخَّرَ عنها يخافُ ويلحقُ.

عِنْدَما بدؤوا الصُّعودَ إلى الجبلِ، بَدَأَ الطَّريقُ كهيئةِ ثعبانٍ مستلقٍ على ظهرِ الجبلِ، قد حَملوا على الأحصنةِ الفُرشَ والأغطيةَ والمخدَّاتِ، وأمَّا الحميرُ فقد وضعوا في الأخرِجةِ الأوعيةَ النُّحاسيَّةَ، وقد ربطوا القدورَ بالحبالِ.

رغمَ أنَّ هَذِهِ الحيواناتِ تحملُ لهم الأمتعةَ، ولا يُعيرونها أيَّ أهمية، ومع ذَلِكَ تعملُ بلا كللٍ أو مللٍ.

وعندَ أذانِ العشاءِ، وصلوا إلى النَّبعِ الموجودِ أسفل القريةِ، وبجانبهِ المسجِد الخشَبي، وتفرَّقَ أفرادُ القافلةِ كحبَّاتِ المسبحةِ المنفرطةِ، وبدؤوا بحملةِ تنظيفٍ للبيوتِ المأجورةِ لأشهر، وتنزيل الأمتعةِ والحمولةِ عن الحيواناتِ، ووصلوا متعبينَ لدرجةِ أنَّهُم لم يأكُلوا شيئاً.

وبعدَ أنْ أفرَغوا الأمتعةَ، أخرجَ السَّيدُ عَبْدُ اللهِ علبةَ الدُّخانِ، وأخذَ يفكِّرُ في الأعمالِ الَّتِي سوفَ يقومُ بها في الغدِ، وكَانَ الكلبُ لا يدري أنَّ اسمَهُ هو نفس اسمِ الجبلِ. فهو كلبٌ وظيفتُهُ الحراسةُ، وفي هذا اليومِ المسافاتُ الطَّويلةُ أنهكتْهُ، فلم يسْتَطِعِ الحراسةَ.

ووجدَ له زاويةً أَمَامَ البيتِ، وتوسَّدَ على يديهِ متثائباً، ومرَّتِ اللَّيلةُ إلى الفجرِ، بَدَأَ الدِّيكُ بالصِّياحِ، وصوتُ المؤذنِ وصدَى الأذان تردِّدُه الجبالُ القريبةُ.

وبعدَ صلاةِ الفجرِ أفطرَ الجميعُ، انطلقَ السَّيدُ عَبْدُ اللهِ

إلى بستانِ العنبِ، وكَانَتْ حبَّاتُ العنبِ تتلألأُ تحتَ أشعَّةِ الشَّمسِ، قالَ السَّيدُ عَبْدُ اللهِ عندَ وصولِهِ للبستانِ:

ـ رحمتكَ يا رب.

لأنَّ وضعَ البستانِ لم يعجبْه، نظراً لصغرِ العناقيدِ وقلَّتها، اقتربَ أحمدُ وحسن من والدِهما وهما حزينانِ، قالَ أحمدُ لأبيهِ وهو ينظرُ إلى العنبِ:

ـ ما هذا يا أبي!؟ أَيْنَ العنبُ؟

ـ انظرْ! ألا تَرى؟ إنَّه هُناكَ.

ـ ولكنَّ العناقيدَ في بستان جارِنا بحجمِ البطِّيخِ تعجزُ الأغصانُ عن حملِها!.

ـ اللهُ أعلمُ بعبادِهِ، فهو يوزِّعُ الرِّزقَ بمشيئتِهِ، هَذِهِ الكميَّةُ من العنبِ هي على قدرِ طاقتِنا من العملِ، وأنا الآنَ ذاهبٌ إلى المدينةِ، وأنتم أحضروا الأواني ونظِّفوها، وجهِّزوا المكَانَ.

ـ حسناً يا أبي.

توجَّه السَّيدُ عَبْدُ اللهِ إلى المدينة راكباً على حصانه.

احتار الكلبُ «طوروس» في أمره، هَلْ يَذْهَب أم

يبقى!؟ في الحَقيقَةِ يُريدُ الذَّهاب، ولكنَّه خاف من أولاد المدينة الَّذِين يرمونه بالأحجار، والطَّريقُ المملوءُ بالحجارة جعلهُ يعدلُ عن الذَّهاب إلى المدينة، وفتَّش عن ظلٍّ يستظلُّ به، ولكن عاد فقَرَّرَ الذَّهاب معهم.

ـ اجلس في مَكَانك.

ولكنَّهُ لم يستمع للكلام، فقَرَّرَ الذَّهاب معهم، وكَانَ يتقدَّمُ عَلَيْهِم لمعرفته الطَّريق.

مرَّ السَّيدُ عَبْدُ اللهِ على البقَّال، فاشترى ما يلزمُه من الشَّاي والسُّكر المغلَّف والبندورة، ولم ينسَ طعام «طوروس». وربط حبل الحصان، قائلاً للكلب:

ـ أنا ذاهبٌ للصَّلاةِ، فلا تتَحرَّكْ.

دخلَ السَّيدُ عَبْدُ اللهِ الجامع، أمَّا «طوروس» فقد استرعت انتباهَهُ قطَّةٌ وتَتَبَّعها، ولم يلحظْ خروجَ صاحبهِ. رؤيتُهُ للقطَّةِ ذكَّرتْه بطبيعتهِ الكلبيَّةِ، وأخذَ يركضُ خلفَها مفكِّراً «إنَّها لا تؤكلُ».

فكَّرَ «إذا اقتربتُ منها ما الفائدةُ؟» ولكنَّهُ استمرَّ في ملاحقتِها.

لو كَانَ إنساناً لاستطاعَ التَّحكمَ بنفسه، ولكنَّه حيوانٌ، فالأمرُ مختلفٌ تماماً.

وتتبَّعها، وكلَّما اقتربَ منها تهربُ منه، متسلِّقةً الشَّجرةَ، وبقيَ أسفل الشَّجرةِ ينظرُ إليها، عندَها أدركَ أنَّهُ لا يسْتَطِيعُ أن يكملَ مَعَ القطَّةِ، فهزَّ ذيلهُ ورجعَ إلى صاحبهِ، ولكنْ لم يجدْ أحداً.

احتارَ الكلبُ في أمرِهِ، وقالَ في نفسهِ: «أعرفُ رائحتَهُ فسأتعقبُهُ، أَيْنَ هو؟ أَيْنَ هو؟».

كان يدورُ حولَ الجامعِ متتبِّعاً الرَّائحةَ دونَ فائدةٍ، وقفَ أَمَامَ الجامعِ، وعِنْدَما لم يجدْ حلّاً آخرَ، وكَانَ داخل الجامعِ صفٌّ واحدٌ من الرِّجالِ يقيمونَ الصَّلاةَ، اقتربَ الكلبُ من المصلِّينَ وأخذَ يشمُّهُم واحداً بعدَ الآخرِ بحثاً عن صاحبهِ، بعضُهم كَانَت تنبعثُ رائحةُ جوارِبِهم قويَّة، تسبِّبُ له العطاسَ أكثرَ من مرَّةٍ.

انتهتِ الصَّلاةُ، وكَانَ يعتقدُ المصلُّونَ أنَّ طفلاً يتجوَّلُ بينهم.

في آخر الصَّفِّ تعرَّفَ على رائحةِ صاحبهِ، فوجدَهُ

وشعرَ بالرَّاحةِ، وغادرَ مسرعاً لأنَّهُ يعرفُ أنَّهُ ليسَ مَكَانهُ في هذا المكَانِ، فذَهَبَ إلى الحصانِ.

وعندَ خروجِ السَّيدِ عبدِ اللهِ من المسجدِ، شعرَ الكلبُ بالرِّضا لأنَّ صاحبَهُ سيراهُ منفِّذاً لوصيَّتهِ، وقالَ في نفسِه: «ما أجملَ أنْ يكونَ المرءُ كلباً!» فأنتَ لا تحملُ شيئاً على ظهركَ، ولا تُربَطُ إلى شيءٍ، وفوقَ ذَلِكَ «لك اسمٌ خاصٌّ».

عندَ خروجِ المصلِّينَ من الجامعِ، تَساءَلوا عن الطِّفلِ الَّذِي كَانَ يتجوَّلُ بينهم، وطبعاً بقيَ السُّؤالُ بلا جوابٍ!

وخرجَ السَّيدُ عَبْدُ اللهِ من الجامعِ، وركبَ على الحصانِ، دونَ أن يوجِّهَ أيَّ ملاحظةٍ للكلبِ، والكلبُ «طوروس» من ورائِهما يقفزُ يمنةً ويسرةً، يشتمُّ الأرضَ حيناً، وينبحُ أُخْرَى، حتَّى وصَلوا إلى الطَّريقِ الجبليِّ الصَّاعدِ، طريقِ جبلِ «طوروس».

# هَلْ أَضْرِبُهُ؟ هَلْ أَقْتُلُهُ؟

عِنْدَما يسدل اللَّيل أستاره، هُناكَ في مكة، عند الكعبة كَانَ كلُّ شيءٍ يبدو مختلفاً تماماً، كلُّ شيءٍ يبدو مدهشاً رائعاً، مساحاتٌ من المرمر الأبيض تلمع تحت الأنوار، وفي وسطها الكعبة ذات اللَّون الأسود الفاحم، تبدو وكَأَنَّها خطٌّ من الحرير في وسط صفحةٍ بيضاء.

في النَّهار السَّاحة تكون مزدحمةً بالنَّاس الَّذِين يطوفون حول الكعبة، بَيْنَمَا في هَذِهِ السَّاعة من اللَّيل يكون المكَان أكثر هدوءاً، والطَّواف أكثر سهولةً.

فجأةً، ارتفع صوت أحدهم صارخاً:

ـ أأقتلُكَ يا رجل؟

العمُّ إسماعيل، من ارزروم، وجهه احمرَّ غضباً، ماسكاً برجلٍ زنجيٍّ، صارخاً يوجِّه له كلمات شديدةً قاسيةً، موبِّخاً مؤنِّباً له.

تكاد عينا الرَّجل تخرج من مقلتيه، ولم يفهم الَّذِي يَحْصُلُ، وفجأةً بَدَأَ هو أيضاً يصرخ طالباً المساعدة.

كَانَ هذا الموقف غريباً بعض الشَّيء! أن يعتدي أحد الحجَّاج على آخر في صحن الحرم، وبجانب الكعبة، وبهَذِهِ الشِّدَّة! أمرٌ نادر الحدوث، ولذَلِكَ كَانَ الجميع ينظرون، وتملأ عيونهم الدَّهشة.

بمجرد سماع المشرف على حملة الحجَّاج الأتراك صوت الحاجِّ إسماعيل أسرع إليه ليرى ما هي المشكلة.

ـ ما المشكلة ياعمي الحاج؟

ـ سأقتل هذا الرَّجل يا شيخي.

ـ اهدأ يا حاجّ، اهدأ أَرْجوك! هَلْ تترك الرَّجل أولاً لنرى ما هي المشكلة؟

ـ ولكن ياشيخي...

ـ أَرْجوك!

ارتخت يدا العمِّ إسماعيل من حول رقبة الرَّجل، سعل الرَّجل الممدَّد على الأرض، محاولاً تمالك نفسه بعد أن تركه العمُّ إسماعيل.

ـ ماذا حدث؟ لماذا هاجمت الرَّجل بهذا الشَّكل؟

وبَدَأَ العم إسماعيل يشرح ما الَّذِي جعله يفعل هذا قائلاً:

ـ عِنْدَما جئت إلى هذا المكَان...

ـ وماذا بعد؟

ـ قلت لنفسي: سأصلِّي بضع ركعاتٍ قضاء لله تعالى، ونظرت حولي فإذا هذا الرَّجل يقرأ القرآن الكريم.

ـ وماذا في ذَلِكَ؟

ـ إلى هنا لا توجد مشكلة.

ـ وهل تستدعي قراءة القرآن أن يخنق الرَّجل من أجلها؟!

ـ يا شيخي العزيز: الَّذِي يقرأ القرآن أحبُّه وأحترمه وأفديه بروحي، ولكنَّ الأمر ليس كما تظنُّ.

في هَذِهِ الأَثْناءِ، تمتم الرَّجل الزّنجي ببعض الكلمات بلغته.

ـ يا إلهي، هَلْ سمعتم؟ مَازالَ يتكلَّم إليكم عنِّي.

وهجم العمُّ إسماعيل على الرَّجل من جديدٍ، وبصعوبةٍ

منعه المشرف والحجّاج الَّذِين كَانوا حوله، ومنعوه أن يصل إليه.

ـ اهدأ، أَرْجوك أن تهدأ.

ـ هل رأيت الرَّجل مثل الغراب الَّذِي رأى جبناً؟

وبَدَأَ يصرخ:

ـ سأضربه ضربةً تعيد عقله إلى رأسه.

ـ كنت تحدِّثنا ما الَّذِي حدث، إيه وبعد؟

ـ بعد أن قرأ القرآن، وضع القرآن تحت رأسه ونام، بربِّك يا شيخ! كتاب الله تعالى، أيصلح أن يكون مخدّةً؟! لم أعد أحتمل، قولوا لي: أأضربه، أأقتله؟!

ـ حسناً يا حاجّ، سأشرح للرَّجل ما هو السَّبب الَّذِي جعلك تفعل هذا!

وبَدَأَ بإيضاح المشكلة للرَّجل بلغته قائلاً:

ـ القرآن الكريم كتابنا المقدَّس، نوليه كلَّ الاحترام في بلدنا، ونتحرَّى الدِّقة أَيْنَ نضعه، وكيف نحمله.

نضعه في مَكَان عالٍ! في كيسٍ خاصٍّ، وعِنْدَما رآك

تضعه تحت رأسك، تستعمله كمخدَّة غضب جدّاً، ولا يُوجَدُ هُناكَ سببٌ آخرُ.

وحاول الرَّجل ذو الشَّعر الأسود، والبشرة السَّوداء، والقلب الأبيض أن يفهم، وفجأةً نهض وتوجَّه إلى العمِّ إسماعيل يقبِّل يديه، وهو يبكي.

ذُهل العمُّ إسماعيل، ولم يعرف ماذا يفعل، فَقَط استطاع أن يَقُول:

ـ لا عليك يا أخي حسناً، حسناً.

ولكنَّ الرَّجل الأسود استمرَّ في تقبيل يديّ العمِّ إسماعيل، وهو يجهش بالبكاء، ولم يستطع العمُّ تمالك نفسه، فأخذ يبكي هو أيضاً، وهَذِهِ كَانَتِ المرَّة الثَّانية الَّتِي يبكي فيها، الأولى عند رؤيته الكعبة لأول مرَّةٍ، وهذا اليوم.

وأنهض العمُّ إسماعيل الرَّجل من على الأرض، وعانقه وبكى.

في هذا المكَانِ المسلمون القادمون إلى هَذِهِ الأماكن المقدسة، وعلى هذا التُّراب المقدَّس، يصبحون إخوةً

حقيقيِّين، ولو كَانوا من مِلل، وأعراق، ودولٍ مختلفةٍ، ويتكلَّمون لغاتٍ مختلفةً، هم أخوةٌ في الدِّين، أخوةٌ في الإنسانيَّة.

مُنْذُ قليلٍ كَانَ العمُّ يُريدُ أن يقتلَ ذاكَ الرَّجُل، والآن هما يتعانقان ويبكيان، أحدهما بلون غطاء الكعبة شديد السَّواد، والآخر بلون المرمر، شديد البياض. كلُّ الألوان والأعراق، كلُّ الحضارات واللُّغات والبلدان، يجعلهم هذا الدِّين أخوةً حقيقيِّين.

ويسدل اللَّيلُ جناحَيه على مكة، مثلما تنسدلُ الكسوة الحريريَّة على الكعبة المشرَّفة، بَيْنَمَا يرتفع دعاء الحجَّاج نحو السَّماء.

# بِلا تَوَقُّفٍ

ـ هل يُوجَدُ عندكم مكَانٌ لشخصين إلى أضنة صباح السَّبت؟

ـ يُوجَدُ يا سيِّدي.

ـ إذاً سآخذُ بطاقتين، ولتكن المقاعد في الوسط لو سمحت.

ـ حسناً، كما تُرِيْدُ.

ـ ولكنَّني أريد أن أسأل: هَلْ تتوقَّف حافلتكم لأَجلِ الصَّلاة؟

أجاب الموظَّف على سؤال الرَّجل بدون أن يرفع رأسه، مادّاً يده بالبطاقات:

ـ بالطَّبع.. بالطَّبع.

انطلق الباص من أنقرة تمام السَّاعة الواحدة ظهراً، وقد كتب على الزُّجاج الأَمَامي: («أنقرة، أضنة» بلا توقُّف).

لم يعيرا أيَّ اهتمامٍ لما كتب على مقدِّمة الباص، ودلفا داخل الباص، وجلسا إلى مقعديهما، وفور مشاهدتهما باباً صغيراً كتب عَلَيْهِ (wc) فهما أن الباص لن يتوقَّف حتَّى أضنة.

عند اجتياز الباص لبحيرة الملح، كَانَ هُناكَ سيِّدةٌ مسنَّةٌ جالسةٌ في المقاعد الخلفيَّة، وبجانبها حفيدها، وفجأةً ارتفع صوتها قائلةً له:

ـ ألا تعرف أن تهدأ قليلاً يا ولدي، ماذا جرى لك؟

وفي الباص المنطلق على الطَّريق بسرعةٍ كَانَ هُناكَ راكبان بَدَأَ القلق يتسرَّب إليهما، لَقَد مضى على أذان الظُّهر فترةٌ طويلةٌ، وتكاد السَّاعة تبلغ الرَّابعة، وبقي نصف ساعةٍ على انتهاء وقت الصَّلاة، وانتظرا طويلاً على أمل أن يتوقَّف الباص، ولكن بلا فائدةٍ، وهنا ناديا على المعاون. جَاءَ المعاون ذو البدلة البوردون، فقالا له:

ـ نريد أن نصلي الظُّهر، هَلْ يمكن أن تتوقَّفوا في مَكَان ما؟

ـ أنا آسفٌ، هَذِهِ الرِّحلةُ بلا توقُّفٍ حتَّى نصل إلى أضنة.

ـ حسناً، ولكنَّ الوقت قد قارب على الانتهاء، ماذا سنفعل؟

ـ في الحَقيقَةِ لا أدري، ما رأيكم أن تُصلُّوا في مقاعدكم؟

ـ مستحيلٌ، لا يمكن ذَلِكَ، لأنَّ الحافلة بإمكَانها أن تتوقَّف، ولا تقبل الصَّلاة في هذا الوضع.

ـ إذا أردتما بإمكَاني سؤال السَّائق، ولكنَّني لا أظنُّ أنَّه سيتوقَّف.

وذَهَبَ المعاون إلى جانب السَّائق، مال إلى السَّائق وتكلَّم معه، بعدها تطلَّع السَّائق إلى المرآة، ونظر إلى عَبْد اللهِ وآدم، ثمَّ قطَّب حاجبيه وتمتم بكلماتٍ غاضبةٍ، عاد المعاون إليهما قائلاً:

ـ لن يتوقَّف، كما قلت لكم، صلُّوا في مقاعدكم.

عندها قال آدم:

ـ سأذهَبُ أنا لأتكلَّم معه.

وغادر مقعده متوجّهاً إلى السَّائق:

ـ السَّلام عليكم يا أخي.

ـ تفضَّل.

ـ بقي القليل على انتهاء وقت صلاة الظُّهر، لو سمحت أن تقف دقيقتين في أقرب محطَّة وقودٍ لنصلِّي.

ـ يا أخي لَقَد قلت للمعاون قبل قليلٍ، هذا الباص لن يتوقَّف حتَّى الوصول إلى أضنة، صلُّوا في المكَان الَّذِي تجلسون فيه.

ـ اسمع يا أخي نَحنُ على وضوءٍ، فَقَطْ دقيقتان، إن توقَّفت، ماذا سيَحْصُلُ؟

وهنا تدخَّلت سيِّدةٌ شابَّةٌ أنيقةٌ، ذات شعرٍ أسود، جالسة في المقعد الأوَّل، موجِّهةً كلامها للسَّائق:

ـ يا أخي نَحنُ اخترنا هَذِهِ الرِّحلة بناءً على عدم توقُّفها أَثْناءَ الطَّريق، ما شأننا نَحنُ بصلاتكم؟ أَرْجوك لا تتوقَّف.

وأضافت سيِّدةٌ مسنَّةٌ جالسة إلى جانبها مخاطبةً آدم:

ـ أرجو أن تبتعد عن السَّائق، ولا تشغله بالحديث، لا قدَّر الله ممكن أن تتسبَّب بحادثٍ.

تدخُّل هاتين السَّيدتين أحزن آدم، فاستدار نحو السَّيدة المسنَّة قائلاً:

ـ حسناً يا سيِّدتي، إذا حَصَلَ حادثٌ ونَحنُ لم نكن قد صلينا، ماذا سنفعل؟

عند سماعها هَذِهِ الكلمات سكتت، وأدارت وجهها نحو النَّافذة.

قالتِ الابنة الشَّابة لأمِّها بلهجةٍ غاضبةٍ:

ـ آه يا أمِّي، ما شأنك أنت والنَّاس؟

عِنْدَما وصل الحديث إلى هذا النَّحو قال السَّائق:

ـ أَرْجوك أن تجلس مكَانَك، هَلْ تظنُّون أنَّ الدِّين محتكراً عليكم فقط، أنا أيضاً أبي ذَهَبَ إلى الحجِّ، ولكنَّ هذا الباص سَيْرُه لن يتوقَّف حتَّى الوصول إلى أضنة، أرجو أن تتفهَّموا ذَلِكَ.

ـ لَقَد سألنا الموظَّف عِنْدَما أخذنا البطاقات إن كَانَ الباص سيتوقَّف، فأجاب بالإيجاب.

ـ حسناً، قولا للموظَّف إذاً أن يوقف الباص.

في هَذِهِ الأَثْناءِ جَاءَ السَّائق الثَّاني، وقال لآدم:

ـ أرجو أن تعود لمقعدك، ولا تزعج باقي المسافرين.

ـ ونَحنُ ماذا عنَّا، ألسنا مسافرين؟ ماذا سيَحْصُلُ إن توقَّفتم دقيقتين، بحقِّ الله؟

ـ أرجو أن تكون مهذَّباً، وتحترم الآخرين، لا تفتعل مشكلةً، اتركوا الرَّجل يقود الباص بهدوءٍ.

وأمسك بذراع آدم، وحاول أن يعيده بالقوَّة إلى مقعده، وفجأة قال آدم مهدِّداً.

ـ حسناً، أوقفا الباص، نريد أن ننزل.

دهش السَّائقان من قول آدم، ومال أحد السَّائقين على الآخر هامساً:

ـ لن يسْتَطِيعا النُّزول في هذا المكَان المقفر من الجبل، أنت خفِّف سرعة الباص، وافتح الباب الأَمَاميَّ، ولنرى هَلْ سينزلان؟ أتحدَّاك لن يسْتَطِيعا النُّزول.

عاد آدم إلى الخلف، وشرح لعَبْد اللهِ ماذا حدث، وأنَّه قَرَّرَ أن ينزلا من الباصِ.

ـ حسناً، ولكن كَيفَ سنجد سيَّارةً في هذا المكَان؟

ـ الله كريمٌ، وهو يعرف نيَّتنا وسيساعدنا، وجمعا

حوائجهما، وجاءا باتجاه الباب الأَمَاميِّ، وقال لهما السَّائق:

ـ هيَّا انزلا.

خفَّف السَّائق من سرعة الباص كثيراً، ثمَّ فتح الباب الأَمَاميَّ، ولفح وجهيهما هواءٌ باردٌ، ووقفا أَمَامَ الباب ماسكين حقائبهما ينتظران أن يقف الباص، ولكنَّه مَازالَ يتحرَّك.

سأل السَّائق الَّذِي يقود الباص:

ـ هل مازلتما مصرَّين على النُّزول؟

ـ نعم، لو سمحت، أرجو أن تقف قبل الوصول إلى ذاك النَّفق، هُناكَ سننزل.

دهش السَّائق من إصرارهما، من أجل الصَّلاة تخلّوا عن الرِّحلة المريحة عن نقودهما، وسينزلان في هذا الجو البارد، في هذا المكَان، وقال لهما:

ـ كما تُريْدان.

وقبل النَّفق بثلاثمئة وخمسين متراً تقريباً أنزلهما.

وأخذ عَبْد اللهِ حقيبته من المكَان المخصَّص

للحقائب، وكَانَ المسافرون ينظرون إليهما من خلف الزُّجاج، بعضهم يسخر منهما، والآخر لم يفهم تصرُّفهما، ومنهم من تألَّم لنزولهما في هذا المكَان، وآخرون يطلُّون من الطَّرف الآخر للباص يراقبوهما، ونزل الرَّجلان، ابتدر آدم صديقه بالقول:

ـ هيَّا يا عَبْد اللهِ، انظر إلى جهة الشَّمس، وعيِّن لنا جهة القبلة، إنْ شَاءَ اللهُ سندرك الوقت.

ومدَّ عَبْدُ اللهِ معطفه أَمَامَهما وصليا، وما إن أنهيا صلاتهما حتَّى سمعا جلبةً شديدةً.

التفتا إلى مصدر الصَّوت، وإذ الباص الَّذِي نزلا منه قد اصطدم بابه الأيمن والمرآة بجدار النَّفق.

أخذ عبد الله معطفه، ومشيا باتِّجاه الباص. ركبا الباص، وكَانَ السَّائق غاضباً متوتِّراً، قال آدم لعبد الله بصوتٍ عالٍ عِنْدَما مرَّا من جانبه:

ـ هل تعلم، أنَّ هذا الباص رحلته بلا توقُّف؟

ـ بالطَّبع يا صديقي أعلم.

# الإِوَزُّ المُرْسَلُ

ارتدى السُّلطان محمَّد الثَّاني ملابسه العسكريَّة، واتَّجه إلى الحظيرة الَّتِي تقع خلف الحرملك، لينتقي حصاناً يمتطيه في جولاته المعتادة، ليراقب أحوال الرَّعية، وكَانَتِ الخيول الموجودة في الحظيرة مخصَّصةٌ لتلك الجولاتِ التَّفقديَّة.

لم تكن غالية الثَّمن ولا جميلةً، ولامزيَّنةً بالجواهر الثَّمينة.

خرج السُّلطان من الحرملك، واختار حصاناً عاديّاً مرقّشاً، وانطلق من القصر، ومعه حاجباه اللَّذان ارتديا ملابس عاديَّة، خرج الثَّلاثة من الباب المقابل للمدينة من جهة أياصوفيا، وما هي إلَّا دقائق حتَّى اختفى الرِّجال الثَّلاثة بين جموع النَّاس، كما تذوب قطعة السُّكر في الشَّاي السَّاخن وتختفي.

كَانَ الحاجبان سعيدَين بتلك الجولاتِ التِي يخرج فيها السُّلطان بين الفينة والأُخْرَى.

ولكنَّ الَّذِي ينغِّص عَلَيْهِما سعادتهما أنَّه يجب عَلَيْهِما أن يتصرَّفا مَعَ السُّلطان ببساطةٍ دون تكلُّفٍ، كما لو أنَّهم أصدقاء، وهذا لم يكن أمراً سهلاً.

وأَثْناءَ جولاته الواسعة، والَّتي شملت عدَّة أقاليم، كَانَ للكثيرين النَّصيب في مقابلة السُّلطان، والتَّجول معه بحريَّةٍ.

ارتدى السُّلطان ملابس رجل علمٍ، ولبس الحاجبان لباس طلَّاب علمٍ، ومرُّوا من أَمَام باب قصر (ألاي)، وألقوا نظرةً إلى الباب العالي، ومشوا فوق الأوراق الصَّفراء المتساقطة من شجيراتِ الجميز العملاقة، وألقوا السَّلام على الناس المتواجدة هُناكَ، وخِلالَ هَذِهِ الفترة كَانَ من العادة إلقاء التَّحية، ولو كَانَ الَّذِين تسلِّم عَلَيْهِم لا تعرفهم!

ثمَّ توجَّه السُّلطان إلى البحر، ووقف على الرَّصيف الخشبيِّ، ينظر إلى المضيق، وكَانَ الهواء يهبُّ من جهة المضيق، لا يميِّز بين سلطان أو أحدٍ من عامَّة النَّاس،

الهواء باردٌ جدّاً، ويبدو المضيق جميلاً جدّاً، وكَأنَّ إسطنبول تغفو على كتفهِ.

وقف السُّلطان مَعَ حاجبيه على الرَّصيف الخشبيِّ، الَّذِي يتأرجح من شدَّة الهواء كالسَّرير، منتظراً قدوم صاحب القارب، ولكن مَعَ هَذِهِ الرِّياح من غير الممكن أن يبحر، نزل السُّلطان من على ظهر الحصان، ونزل معه حاجباه أيضاً، ربطوا أحصنتهم في جذع شجرةٍ كَانَت هُناكَ، وأعطوا الحارس ثلاثة قروشٍ، وكَانَ في نيَّتهم الذَّهاب إلى (أوسكودار)، ولكن بهَذِهِ الظُّروف لم يتمكَّنوا من الذَّهاب، فاختاروا مَكَاناً آخر (جذبا)، حَيْثُ وجدوا قارباً بانتظارهم، مشوا بحذرٍ فوق الألواح الخشبيَّة المتعفِّنة، واقتربوا من القارب، هُناكَ ألقى أحد الحاجبين السَّلام على صاحب القارب:

ـ السَّلام عليكم.

ـ وعليكم السَّلام.

ـ هَلْ تأذنُ لنا بالرُّكوب؟

تبسَّم الرَّجل المسنُّ ذو الشَّعر الأبيض، وقال:

ـ إذا أذنَ الله، تفضَّلوا.

ـ هَلْ من الممكن الإبحار في مثل هذا الطَّقس؟

ـ الله كريمٌ.

ـ ولكن ألا توجد خطورةٌ؟

ـ لا قدَّر الله.

وهنا نفذ صبر السُّلطان من هذا التَّأخير، وقال:

ـ لا لزوم لكلِّ هذا الكلام، هيَّا إلى القارب.

قفز أحد الحاجبين إلى القارب، ومدَّ يده للسُّلطان، بَيْنَمَا بقي الآخر متأهِّباً، لربَّما يحتاج مولاه إلى مساعدةٍ. وبقي متأهِّباً خوفاً من أن يحتاج أيَّ مساعدةٍ!

انطلق القارب في مياه المضيق متأرجحاً يمنة ويسرةً، والرَّجل المسنُّ يمسك بالمجاذيف برشاقةٍ غير متناسبةٍ مَعَ سنِّه، ولكنَّ القارب بطيءٌ.

فَقَالَ أحد الحاجبين:

ـ لو تجذِّف يا أخي بسرعةٍ أكثر من ذَلِكَ؟

ـ لا يا سيِّدي، البحر لا تنفع معه السُّرعة، وخاصَّة في مثل هذا الطَّقس.

ـ معك حقٌّ، لن يَحْصُلَ مكروهٌ، أليس كذَلِكَ؟

ـ إن لم نسرع لن يَحْصُلَ بإِذنِ الله، وأنتم في قارب (الهدى)، وقد دعا رسولنا الحبيب (صلَّى الله عَلَيْهِ وسلَّم) لمن أحبَّه بأن لا يغرق في البحر، ولا يصبح فقيراً، وأن يثبت على دينه.

أخذ السلطان ينظر إلى الرَّجل فأعجب بخبرته، وقال في نفسه:

ـ مؤكَّداً أنَّه يمارس هَذِهِ المهنة مُنْذُ زمنٍ بعيدٍ، فَقَالَ له:

ـ مُنْذُ متى وأنت في هَذِهِ المهنة يا عمُّ؟ أأنت أكبر عمراً أم القارب؟

ـ في الحَقيقَةِ أنا لا أعرف بالضَّبط عمر القارب، أمَّا أنا فأعمل في هَذِهِ المهنة مُنْذُ خمس سنواتٍ.

ـ فَقَطْ خمس سنواتٍ؟ ماذا كنت تعمل قبلها؟

ـ كنت أعمل مراقباً في سلاح البحريَّة عند مولانا السُّلطان، وعِنْدَما بلغت سنَّ التَّقاعد قَرَّرت شراء هذا المركب، ولأنَّ الله لا يحبُّ التَّقاعس عن العمل، والرِّزق يحتاج إلى حركةٍ، وكما ترون في البحر، من هنا ومن هُناكَ

أتدبَّر أمري، فإن رزقنا الله شكرنا، وإن أمسك عنَّا صبرنا، إيه.. الدُّنيا مثل حجر الطَّاحون لا تقف عند حال.

أعجب السُّلطان بحديث الرَّجل، ولكنَّه لم يكتفِ منه بهذا، فاقترب منه، ودار بينهما حديثٌ طويلٌ.

ابتدأ السُّلطان حديثه بسؤال الرَّجل:

ـ يا عمُّ! كَيفَ هو الحال بين التَّاسع والثَّاني؟

حكَّ الرَّجل رأسه، ثمَّ استدار بوجهه الَّذِي تركت عَلَيْهِ السُّنون علاماتها، ونظر إلى السُّلطان طويلاً، ثمَّ قال:

ـ بين التَّاسع والثَّاني إلى الثَّاني أضرب، وفي الثَّاني أقع، والخامس عشر يعمل.

وصمت الرَّجلان فترةً من الزَّمن، وكَانَ واضحاً أنَّ الرَّجل لا يحبُّ الثَّرثرة، وأخذ السُّلطان يتأمَّل النَّوارس والمجاذيف، وأمواج البحر، ثمَّ أكمل قائلاً:

ـ لَقَد سمعت النَّاس يَقُولون أنَّ اللُّصوص قد كثروا هَذِهِ الأيَّام، هَلْ حدث ودخل بيتك لصٌّ هَذِهِ الأيَّام؟

ـ نعم يا سيِّدي، من شهرين، والآن يُوجَدُ أحدهم يحوم حول البيت.

أنصت الحاجبان إلى كلام الاثنين، وحاولا أن يفهما ما الَّذِي يدور بينهما، ولكن بلا جدوى.

اقترب القارب من شاطئ اسكودار، وبَيْنَمَا يحاول الرَّجل أن يرسي القارب بادره السُّلطان بالسُّؤال:

ـ إذا بعثت لك إوزَّتين سمينتين، هَلْ تسْتَطِيعُ أن تعيدهما بدون أن يصيبهما أيُّ ضررٍ؟

ـ بالطَّبع يا سيِّدي، إنْ شَاءَ اللهُ، كن مطمئناً.

حاول الرَّجلان تفسير الكلمات والجمل الغريبة الَّتِي تكلَّم بها السُّلطان مَعَ الرَّجل، ولكنَّهما لم يفلحا، لَقَد كَانَت أرقاماً وكلماتٍ لم يسْتَطِيعا حلَّها، وكَأَنَّها أُحْجِياتٌ أو شيفرةٌ سريَّةٌ.

شعر الرَّجلان بالقلق الشَّديد، وفكَّرا إن سألهما السُّلطان عن معنى الحديث، بماذا سيجيبانه!. ولم يسْتَطِيعا أن يتخيَّلا كَيفَ سيكون موقفهما، ولم يناما ليلتها.

وفي اليوم التَّالي، قَرَّرَ الاثنان الذَّهاب، والبحث عن الرَّجل وسؤاله.

انطلق الاثنان وسألا عنه، ولم يمضِ وقتٌ طويلٌ حتَّى عثرا عَلَيْهِ في أحد المقاهي، اقتربا منه وسلَّما عَلَيْهِ:

ـ هَلْ تذكرتنا يا عمُّ؟

ـ من؟ طبعاً.. طبعاً تذكَّرتكما، أنتما اللَّذان أوصلتكما البارحة، وأذكر أنَّكم كنتم ثلاثةً، أليس كذَلِكَ؟

ـ معك حقٌّ يا عمُّ، نَحنُ نعمل في خدمة مولانا السُّلطان، في قصر توب كابي.

ـ حقّاً!؟ أطال الله في عمر مولانا السُّلطان.

ـ يا عمُّ: نريد أن نتحدَّث معك حديثاً خاصّاً، إن كَانَ لديك متَّسعٌ من الوقت.

ـ تفضَّلا، ليس لديَّ شيءٌ يشغلني الآنَ.

ـ ما رأيك أن ننتقل لمكَان هادئٍ نتحدَّث به؟ إن لم يكن لديك مانعٌ.

ـ تفضَّلوا.. تفضَّلوا.

وخرج الجميع من المقهى، وجلسوا في مَكَان هادئٍ على الشَّاطئ، لا تعكِّر صفوه سوى صيحاتِ النَّوارس الَّتِي تملأ المكَانَ، وصوت ارتطام الأمواج بصخور الشَّاطئ.

وبَدَأَ أحد الحاجبين الحديث.

ـ هل تعرف من كَانَ الرَّجل الثَّالث الَّذِي كنَّا بصحبته؟

ـ من؟

ـ كَانَ مولانا السُّلطان.

ـ حَصَلَ لي الشَّرف.

ـ لَقَد جئنا إلى هنا نبحث عنك، لأنَّنا نريد معرفة معنى الحديث الَّذِي دار بينكما.

قال هذا الكلام، ومدَّ يده لكيس نقودٍ ذَهَبيَّةٍ، ووضعه بجانب الرَّجل، نظر هذا الأخير إلى كيس النُّقود وقال:

ـ السُّؤال الأوَّل: وقد كَانَ مهمّاً، سألني عن التِّسع والاثنين، وهي تعني الأسنان الَّتِي في فم الإنسان، وقصد بسؤاله: كَيفَ أتدبَّر أموري في هَذِهِ الأيَّام؟

فقلت له أن الَّذِي أربحه يكفيني فَقَط الخمسة أيَّام الأولى من الشَّهر.

ـ حقّاً؟! نَحنُ لم نتوقَّع هذا المعنى أَبَداً، والسُّؤال الثَّاني يا عمُّ؟

وأخرج كيساً آخر من النُّقود الذَّهَبيَّة، ووضعه إلى جانب الكيس الأوَّل.

نظر الرَّجل إلى كيس النُّقود وقال:

ـ عِنْدَما سألني عن اللُّصوص أجبته أنَّه دخل لصٌّ بيتي مُنْذُ شهرين، وأعني أنَّني زوَّجت ابني مُنْذُ شهرين، وقلت له هُناكَ آخر يحوم حول البيت، أقصد به ابني الثَّاني، لأنَّه يطلب منِّي أن أزوِّجه هو أيضاً.

ـ والسُّؤال الثَّالث؟

ـ آاااهٍ.. الثَّالث هذا السُّؤال جوابه عندكما!.

ـ كيف عندنا؟ لم نفهم شيئاً، ما الَّذِي تقصده؟

ـ السُّلطان عِنْدَما ذكر الإوزَّتين، كَانَ يقصد بهما، وأشار بإصبعه إلى الرَّجلين، وهو يضحك ويهزُّ رأسه يمنةً ويسرةً.

ووسط دهشة الرَّجلين، نهض من مَكَانه، بعد أن التقط الكيسين من الأرض، وابتعد وهو يردِّد:

ـ أطال الله في عمر السُّلطان، أطال الله في عمر السُّلطان.

نهض الرَّجلان من مَكَانهما، متوجِّهين إلى القصر، وهما يضحكَان، ويردِّدان:

ـ أطال الله في عمرك يا مولاي.

# حَارِسُ الزَّيْتُونِ

كن واثقاً أنَّه دائماً هُناكَ طريقةٌ للابتسام في أكثر المواقف حزناً في حَياتِك.

قال الكاتب: «في كلِّ لحظةٍ من حياتي، كنت أحاول أن أصنع ابتسامةً» وكَانَ يقصد أنَّه يبذل قصارى جهده كي لا يتخلَّى عن ابتسامته في أصعب المواقف، وأكبر المشاكل.

نسْتَطِيعُ أن نسمِّي هذا الكتاب بـ «كتاب الحكاياتِ المتفائلة».

حاول فيه الكاتب أن يقترب من كلِّ تِلْكَ التَّفاصيل الصَّغيرة في الحياة أحياناً، ويبتعد أحياناً أُخْرَى، وتشعر عند قراءتك للقصص أنَّك تحتفظ بمشاعر دافئةٍ في ذاكرتك، لا تزول بانتهاء صفحاتِ الكتاب.

المهمُّ أنَّه عند قراءتك للكتاب، تسْتَطِيعُ أن تلتقط تِلْكَ

الأشياء الَّتِي يشير إليها الكاتب خاصَّةً عِنْدَما يتكلَّم مرَّةً عن حياة الأجيال الماضية، ومرَّةً عن حياته بشكلٍ رائعٍ جدّاً.

(حارس الزَّيتون) في الأيَّام الَّتِي يعود فيها إلى بيته بعد صلاة المغرب، كرة الطِّين الَّتِي كنَّا نحرز بها هدفاً، ونتجادل فيما بيننا، هَلْ يحسب هدفاً أم لا؟! نترك حياتنا الحديثة راحلين إلى حيِّنا القديم، تصحبنا ابتسامةٌ تذكِّرنا بكلِّ تِلْكَ التَّفاصيل الَّتِي عشناها في طفولتنا، هَؤُلاءِ الأبطال «نَحنُ» ننتقل من قصَّةٍ إلى أُخْرَى.

مع تمنِّياتنا ببقاء الابتسامة على وجهك، وأنت تقرأ آخر صفحاتِ الكتاب.

# المحتوى


مِقْلاةُ البَيضِ ..... 5
هَلْ تَعْرِفُونَ القُرآنَ؟ ..... 19
سُنَّةُ الصُّبْحِ ..... 31
الإِجَاصُ وحِذَاءُ الرِّيَاضَةِ ..... 43
هَلِ انْتَهَى رَمَضَانُ؟ ..... 61
هَل قَلبتَ حلوَى «الرِّيواني»؟ ..... 77
هَلْ باضَ ديكُكُم يا سيِّدي؟ ..... 95
طَرِيقُ العَوْدَةِ ..... 131
طُورُوس ..... 151
هَلْ أَضْرِبُهُ؟ هَلْ أَقْتُلُهُ؟ ..... 161
بِلا تَوَقُّفٍ ..... 167
الإِوَزُّ المُرْسَلُ ..... 175
حَارِسُ الزَّيْتُونِ ..... 187
المحتوى ..... 189